الفصل الثالث

منهجه في التفسير بالرأي

- سمات التفسير بالرأي عند الرسعني
- التفسير الإشاري (الصوفي) عند الرسعني وموقفه منه
- الاتجاه اللغوي في تفسير الرسعني
- النحو في تفسيره
- البلاغة والإعجاز في تفسيره

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

يبدو من الأهمية بمكان ـ وقبل البدء بالحديث عن منهج الرسعني في التفسير بالرأي وبيان موقفه من هذا التفسير ـ أن أُقدم بين يدي الموضوع لمحة مختصرة عن التفسير بالرأي ، والمراد به لغة واصطلاحاً ، وبيان آراء العلماء في حكمه . . . إلخ .

أولاً : الرأي لغة

الاعتقاد ، وأصحاب الرأي ، أصحاب القياس ؛ لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً أو أثراً[1].

ويلاحظ أن الرأي يطلق على الاعتقاد ، وعلى الاجتهاد ، وعلى القياس ومنه أصحاب الرأي ، أي أصحاب القياس .

ثانياً : اصطلاحاً

هو الاجتهاد إن كان مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم[2].

ثالثاً : التفسير بالرأي (باعتباره مركباً)

هو أن يعمل المفسر عقله في فهم القرآن ، والاستنباط منه ، مستخدماً آلات الاجتهاد[3]، وقيل : هو تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم في القول ، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها ، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ، ووقوفه على أسباب النزول ، ومعرفته

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادي ١٢٨٦ (رأى) .

(٢) مناهل العرفان للزرقاني ٢/٤٠ .

(٣) ابن جزي ومنهجه في التفسير للزبيري ٢/٢٣٥ .

بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن ، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر[1].

رابعاً : حكمه

اختلفت أنظار العلماء في التفسير بالرأي ، فمنعه بعضهم وأجازه بعض آخر ، ولكل فريق منهم أدلته التي استند إليها[2]، فعلى سبيل المثال استدل المانعون بقوله ﷺ (مَن قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)[3].

أما المجيزون فقد استدلوا بأدلة منها قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) ، وقوله ﷺ لابن عباس : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[4].

ولكل من هؤلاء العلماء ـ رحمهم الله ـ وجهة نظر معتبرة فمن منع التفسير بالرأي ، منعه حرصاً على كتاب الله أن يكون عرضة لكل من يدعي العلم فيفسر آيات الله فيقع في المحظور ، وربما يفتح أبواباً للطاعنين بكتاب الله والمتربصين شرًّا بالإسلام وأتباعه ، وأما المجيزون فهم قيدوا ذلك بشروط ينبغي أن يلُمَّ بها المفسر كالعلم بالعربية ، والنحو والبلاغة ، وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والأصول ، والفقه وغيرها من العلوم[5].

---

(١) التفسير والمفسرون ، دكتور محمد حسين الذهبي ٢٢١/١ .

(٢) لقد أفاضت كتب علوم القرآن في ذكر أدلة العلماء المانعين والمجيزين للتفسير بالرأي ومناقشتها ، انظر : على سبيل المثال : البرهان للزركشي ١٦١/٢ وما بعدها ، والإتقان للسيوطي ٤٦٢/٢ وما بعدها ، مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية : ٨٩-٩٢ ، التفسير والمفسرون دكتور محمد حسين الذهبي ٢٢١/١-٢٢٩.

(٣) أخرجه الترمذي عن ابن عباس في كتاب تفسير القرآن ، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه برقم : ٢٩٥٠ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والنسائي في الكبرى في كتاب فضائل القرآن ، باب من قال في القرآن بغير علم برقم : ٨٠٨٤ ، وأحمد ٢٣٣/١ ، والطبراني في الكبير ٣٥/١٢ برقم : ١٢٣٩٢، والحديث في سنده عبد الأعلى بن عامر الثعلبي ، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق يهم ، انظر : تقريب التهذيب ٣٣١ .

(٤) سبق تخريجه ص ٢٠٩ .

(٥) الأدوات التي يحتاجها المفسر ، انظر البرهان للزركشي ٦/٢-٥٣ ، والإتقان للسيوطي ٤٦٤/٢ وما بعدها .

والخلاصة في هذا أن التفسير بالرأي الذي يقوم على الاجتهاد في إبراز معاني القرآن الجلية والخفية التي يدل عليها النص بصريح العبارة أو بلطيف الإشارة فإنه تفسير محمود جائز ؛ لأنه يستند إلى البرهان والدليل ، ويعتمد في سبيل الوصول إليه على وسائل شتى وطرق عدة سبق ذكرها[1].

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام[2]، وهو الذي لا يستند إلى دليل ولا برهان ولا يعتمد تلك الأدوات التي يحتاجها المفسر وهو المراد بقوله ﷺ (من قال في القرآن بغير علم) فقيده بغير علم ، ومن مفهوم المخالفة يتضح أن مَن قال في القرآن بعلم يخرج من دائرة المحذور الذي جاء بالحديث ، والله أعلم .

وإن كان من كلمة خاتمة في هذا التمهيد فهي العلم بأن هذا القرآن لم ينزل لزمان أو مكان محدد ، بل نزل ليشمل الزمان مهما امتدّ ، والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ، ومن ثَمَّ لابدّ من النظر فيه والتأمل والتدبر الذي يقوم على البرهان والدليل من أهل العلم المشهود لهم بالعلم والاستقامة ؛ لإخراج ما فيه من كنوز لهداية البشرية التي تعيش أجواء القرن الحادي والعشرين وما فيه من ماديات ومغريات أبعدت الناس كثيراً عن جادة الصواب وشُغلوا وانشغلوا عن تدبر هذا الكتاب العظيم الذي جعل الله تعالى القوامة والهداية به لا بغيره فقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٩).

---

(١) كالعلم باللغة ، والنحو ، وأصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ ، وغيرها من العلوم .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨٦ ، وقال أيضاً : « وأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه» ٩١ .

obeikandl.com

المبحث الأول

سمات التفسير بالرأي عند الرسعني

إن الطابع العام الذي يمتاز به تفسير الرسعني هو التفسير بالمأثور ـ كما أسلفت ـ ويحوي أيضاً بين ثناياه التفسير بالرأي ، وهو بهذا جمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود ، وإن كان جانب الأثر يغلب عليه .

أما عن موقف الرسعني من التفسير بالرأي هل يجيزه أم لا ، وما هي شروط إجازته لهذا التفسير ، فيمكن القول إن الرسعني ـ رحمه الله ـ يميل إلى القول بالتفسير بالرأي المنضبط بالأدلة والبراهين ، الذي يشهد العلم بصحة ذلك الاستنباط ، يقول ـ رحمه الله ـ « وهكذا يجب على كل عالم أن يتورَّع عن القول في كتاب الله بغير علم وبصيرة ، وأن لا يُقدم على تفسير شيء منه إلا بنقل فيما طريقه النقل ، أو استنباط يشهد العلم بصحته »[1] .

فها هو يصرح بأن للتفسير طريقين أحدهما : النقل الصحيح ، والثاني : الاستنباط الذي يشهد العلم بصحته ، بمعنى الذي يقوم على دليل وبرهان ويُعتمد على أدواته[2] التي لابدّ أن تتوفر في المفسر ، ويصرح الرسعني أنه استخدم عقله واجتهاده في التفسير فقال : « كل ذلك مما عقلته فقلته لا مما وجدته فنقلته »[3] .

---

(١) رموز الكنوز ٨/٤٩٦ .

(٢) سبق ذكرها ، وهي معرفته بعلوم العربية ، والأصول ، والفقه ، والناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول وغيرها من العلوم .

(٣) رموز الكنوز ٨/٦٣٤ .

وكذلك مما يؤكد قول الرسعني بالتفسير بالرأي المحمود الذي يقوم على القواعد والأدلة ما سطّره في تفسيره من هذا النوع من التفسير ، والذي يمكن أن نقف عليه في النقاط والأمثلة الآتية :

١- يميل الرسعني إلى جواز التفسير بالرأي المنضبط بالدليل والبرهان والذي يشهد العلم بصحته ـ كما سبق ـ وعلى هذا فتراه يوجه الآية بأكثر من معنى ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ (آل عمران:١٥٣) ، قال الرسعني : « في توجيه الآية طرق :

أحدها : فأثابكم غمّاً عظيماً تضاءل عنده الغم الأول ، وهو ما فاتكم وأصابكم عند سماع صوت الشيطان : قُتل محمد ، فبقي الغم الأول مغموراً كأن لم يكن له وجود .

الطريق الثاني : فأثابكم غمّاً بغم لتتمرنوا وتتعودوا ، فلا تحزنوا على ما فاتكم من المسار ، ولا على ما أصابكم من المضار .

الطريق الثالث : أن تكون لام (كي) متعلقة بقوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ (آل عمران:١٥٢) ، أي عفا عنكم لكي لا تحزنوا ، فإن عفو الله يذهب بالحزن »[١].

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٥٥) ، قال الرسعني : « ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ من الذنوب وهو معصية الرسول ﷺ بمفارقة المركز ، وذكر البعض مُشعِر بأن المعفو عنه من الذنوب أكثر »[٢].

---

(١) رموز الكنوز ١/٣٣٥ ، ٣٣٦ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ١/٣٤٠ .

٢- يستنبط أحياناً دلالات من الآية الكريمة ، وإشارات لطيفة مما يوحي بتأثره نوعاً ما بالتفسير الإشاري ـ الذي سيأتي الحديث عنه في المبحث الثاني ـ كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١٢٠) ، يقول الرسعني : « وفي هذه الآية دلالة على أن سهام الكيد لا تنفذ في دروع الصبر والتقوى ، وإرشاد للعباد أن يستعينوا بهما في غمرات المهالك ، ومخاوف المسالك »[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩) ، قال الرسعني : « فانظر إلى هذا اللطف كيف هيّج سبحانه وتعالى دواعي شفقة الحاضرين عند الموصي على ذريته وورثته ، بتذكرهم موتهم ، وتخليفهم ذرية ضعافاً ؛ ليبعثهم على القول السديد بباعثي الشرع والطبع »[٢].

٣- يستخرج الرسعني من الآية أحكاماً فقهية وخاصة فيما يتعلق بالقصص القرآني ، وينبه إلى دلالات فقه القصة بأسلوب مختصر ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٥) ، يقول الرسعني : « وفي هذا دليل على جواز وصف الإنسان نفسه بالأوصاف الجميلة ، إما على وجه التحدّث بنعمة الله ، أو لتحصيل خير ، أو لدفع ضرر ، إنما المذموم من ذلك ما كان على مذهب التكبر وتعظيم النفس ، فإذا خلص من هذا فلا بأس به »[٣].

وفي قوله تعالى﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا

---

(١) رموز الكنوز ٢٧٨/١ .
(٢) المصدر السابق ٤٣١/١ .
(٣) المصدر السابق ٣٦٥/٣ .

﴿ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨،٧٩) ، قال الرسعني : «وفي هذه القصة بيان ظاهر وبرهان على جواز كون النبي ﷺ وغيره من الأنبياء متعبدين بالاجتهاد فيما لا نصّ فيه ، وأنكر ذلك قوم لكونهم قادرين على استكشاف ذلك بطريق الوحي[1] ، وفي هذه القصة أيضاً دليل على أن الحق في قول واحد من المجتهدين وهو مذهبنا ، وقول أكثر العلماء ، وسواء كان ذلك في أصول الدين أو فروعه»[2].

٤- أكثر ما يُميّز تفسير الرسعني تأملاته البيانية للآيات ، ووقوفه عند التقديم والتأخير ، أو اختيار هذه اللفظة بدل تلك ، وغالباً ما كان يأتي به بأسلوب السؤال الاعتراضي والإجابة عنه ، وسأكتفي ببعض الأمثلة عن هذا الموضوع الواسع الذي سيأتي شطر من الحديث عنه في موضوع الجانب البلاغي في منهج الرسعني .

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ (الأنعام:١٥٢) ، قال الرسعني : «فإن قيل لِمَ خصَّ مال اليتيم بالذكر مع أن جميع الأموال لا يجوز قربانها إلا بالتي هي أحسن؟ قلت : خصَّه بالذكر لضعفه عن الانتصار لنفسه ، وزيادة الطمع فيه لصغره»[3].

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف:٢٦) ، يقول الرسعني : «فإن قيل اللباس غير منزّل ، فكيف أوقع عليه لفظ الإنزال؟ قلت : عنه جوابان : **أحدهما** : أن

---

(١) مسألة اجتهاد الأنبياء عليهم السلام مسألة أصولية بحثتها معظم كتب أصول الفقه قديماً وحديثاً ، وأهم ما فيها أن اجتهادهم مسدّد بالوحي ، وهو مُلزم للأمة بخلاف غيرهم ، وهناك من أفرد هذه المسألة بالبحث والدراسة ، مثل كتاب اجتهاد النبي ﷺ للشيخ عبد الجليل عيسى ، واجتهاد الرسول ﷺ للدكتورة نادية شريف العمري طبعته مؤسسة الرسالة ، ط٤ ، ١٤٠٨هـ .

(٢) رموز الكنوز ٦٤٥/٤ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٤٨/٢ .

المعنى ، أنزلنا عليكم الحكم به ، كما يقال : أنزل الله الصلاة ، **والثاني** : أنه لما كان اللباس متخذاً من النبات الذي سببه المطر أوقع عليه لفظ الإنزال»[1].

وفي قوله تعالى ﴿ **ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ** ﴾ (يس:٦٥) ، قال الرسعني : «فإن قيل : لِمَ سُمِّي ما صدر من اليد كلاماً ومن الرجل شهادة؟ قلت : لأن اليد مباشرة والرجل حاضرة ، وقول الإنسان على نفسه إقرار وعلى غيره شهادة»[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ** ﴾ (عبس:٣٤-٣٦) ، قال الرسعني : «سألني يوماً رجل من الأكابر في محفل محشود بالعلماء والفقهاء بالموصل فقال : لِمَ بدأ بالأخ من بين الأقارب؟ قلت : غير خاف ما طُبعت عليه النفوس العربية الأبية من العصبية والمدافعة والممانعة ، ومعلوم أن المكافئ للإنسان عند حاجته إلى المعاضدة والمناصرة إنما هم الأخوة ؛ لأن الآباء في مظنّة الكبر ، والأبناء في مظنّة الصغر ، وهم حالتا ضعف وعجز ، والمقصود من سياق هذه الآية بيان شدائد القيامة وأهوالها ، فأعلم الله عز وجل أن الناس في القيامة تخامرهم مخاوف وزلازل تذهل القريب المرجوّ لدفع الكرب والشدائد ، وتوجب فراره عن أعز الناس

---

(١) رموز الكنوز ٢/١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ٦/٣٥٥ ، وقد جمع الرسعني بين هذه الآية من سورة يس وقوله تعالى ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ (فصلت:٢٠) ، ولية جمع الآية الأخرى من سورة النور وهي قوله تعالى ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ (النور:٢٤) ، ووفّق بين هذه الآيات الثلاث ووضّح ما بها من فوارق لكان أشمل وأجود ، أما قول الرسعني : «قول الإنسان على نفسه إقرار وعلى غيره شهادة» فلعل هذا من باب التغليب ، فلا يؤخذ على إطلاقه ؛ لأنه وردت كلمة الشهادة بمعنى الإقرار ، كما في قوله تعالى ﴿ **قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ** ﴾ (الأنعام:١٣٠) ، قال الرسعني (شهدنا) أي أقررنا ، انظر : رموز الكنوز ٢/٨ ، ٥/٢٢٥ ، ٧/١٨، ١٩ .

عليه ، وأقربهم إليه ، فبدأ بالأخ ، لما بينه وبين أخيه من القرابة القريبة ، وكونه أشد معاضدة لأخيه ومناصرة له على المعنى الذي ذكرناه ، ثم قال الرسعني : ورأيت بعد ذلك صاحب الكشاف قد ذكر معنى آخر غير هذا فقال : بدأ بالأخ ، ثم الأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين ، لأنهم أقرب وأحب ، كأنه قيل : يفرّ من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه»[1].

ولعل من المناسب أن أشير إلى قوله تعالى في سورة المعارج ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾ (المعارج:١١-١٣) ، فبين آيات المعارج وعبس وجه شبه في ذكر الأخ والابن والصاحبة كما لا يخفى[2].

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (فاطر:٢٢) ، قال الرسعني : «فإن قيل :

---

(١) رموز الكنوز ٤٩٧/٨، ٤٩٨ ، والكشاف للزمخشري ٢٢٠/٤ ، وفي كلام الرسعني بنسبة القول لقائله دلالة على الأمانة العلمية ، قال الآلوسي معقباً على قول الزمخشري : «ولا يخفى تكلفه مع اختلاف الناس والطباع في أمر الحب» ، وكأن الآلوسي لم يرض قول الزمخشري ، ويمكن أن يحمل كلام الزمخشري على أنه من باب التغليب ، وبذلك يكون قوله مقبولاً وهو ما يميل إليه الباحث ، خاصة عندما تقارن بين هذه الآيات والآيات الأخرى من سورة المعارج (١١ ، ١٢) والله أعلم ، انظر : روح المعاني ، شهاب الدين محمود الآلوسي ٣٢٠/٢٩ (تحقيق : دكتور السيد محمد ، سيد إبراهيم عمران ، دار الحديث القاهرة ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م) ، والتحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٣٥/٣٠ (الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م) .

(٢) جمع بين هذه الآيات من السورتين الكريمتين الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي حيث أشار إلى أن آيات سورة المعارج تتحدث عن الفداء والمناسب أن يبدأ المرء بأغلى وأعز شيء عليه كي لا يدخل في النار ، أما آيات سورة الحاقة فالكلام فيها عن الفرار ، والمرء عادة يفرّ من الأبعد حتى يكون الأقرب إليه هو آخر من يفارقهم وهو الابن والزوجة ، انظر : لمسات بيانية للدكتور فاضل السامرائي ١٩٣ (دار عمار ، الأردن ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م).

هلاً قيل : (وما أنت بمسمع الموتى)؟ قلت : هذا أدخل في المقصود وأوغل في نفي الإسماع ؛ لأنه قد انضم إلى كونهم موتى تغييبهم تحت أطباق الثرى ، فانتفى الإسماع لانتفاء سببه ؛ وزاده تأكيداً وجود مانعه ، بخلاف ميّت موّسد بين أهله ، فإنه لقرب العهد بمجاورته والأنس بمجاورته[1] ، يُخيّل إلى مخاطبه أن روح الحياة تتردد فيه مع علمه بوجود منافيه ، وهذا المعنى من نفائس الخصائص ، ومن الجواهر التي لم يظفر بها قبلي غائص»[2] ، ولو تطرق الرسعني إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ (النمل:٨٠) ، لكان أفضل ولأزال التساؤل الذي ربما يتبادر للذهن عن التوفيق بين الآيتين ، وفيما أثاره الرسعني من تساؤل فهنا استُخدمت كلمة الموتى؟ .

٥- يمكن الاستدراك على الرسعني في تفسيره عند بيانه لمعنى مفردة أو آية ، وتصريحه أحياناً بأن المعنى واحد ، وهو ما جانب الصواب فيه ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (النساء:٨٥) ، قال الرسعني : «والنصيب والكفل بمعنى واحد ، والمعنى : أن لهذا نصيباً من الآخر ، ولهذا كفلاً من الوزر»[3] .

وهذا القول مرجوح فيما يبدو ؛ لأن القرآن فرّق بينهما وغاير فذكر للشفاعة الحسنة النصيب ، وللشفاعة السيئة الكفل ليغرس في ذهن القارئ والمستمع الفارق بين الصورتين ، وأشار لهذا المعنى صاحب روح المعاني

---

(١) ربما وقع تصحيف في نسخ المخطوط فتكررت كلمة مجاورته في التفسير المحقق ، والصحيح أن الثانية محاورته بالحاء (لقرب العهد بمجاورته والأنس بمحاورته) ؛ ليستقيم الكلام ، والله أعلم .

(٢) رموز الكنوز : ٦/٢٨٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/٥٧٤ .

فقال : «التعبير بالنصيب في الشفاعة الحسنة ، وبالكفل في الشفاعة السيئة للتفنن ، وفرّق بينهما بعض المحققين بأن النصيب يشمل الزيادة ، والكفل هو المثل المساوي فاختيار النصيب أولاً ؛ لأن جزاء الحسنة يضاعف ، والكفل ثانياً ، لأن من جاء بالسيئة لا يُجزى إلا مثلها ، وقال بعضهم : إن الكفل وإن كان بمعنى النصيب إلا أنه في الشر وندر في غيره كقوله تعالى ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ (الحديد:٢٨)، فلهذا خُصَّ بالسيئة تطرية وهرباً من التكرار»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:١٤) ، يقول الرسعني : «فإن قيل لِمَ غاير بين المميّزين؟ قلت : لأنه أحسن من تكرير السنة أو العام مرتين»[٢] ، وهذا المعنى وارد ، وهناك توجيه آخر أوجه وأقوى مما ذهب إليه الرسعني ، فقد قيل : «إن السَّنة غالب استعمالها في الحول الذي فيه الشدة والجدب ، بخلاف العام فإن استعماله في الحول الذي فيه الرخاء»[٣] ، وهذا هو الصواب والله أعلم ، ويؤيد هذا القول الآيات من سورة يوسف التي أشارت للسنة في محل الجدب والقحط ، ولفظ العام عن انفراج الشدة والكرب وهو العام الذي أُغيث فيه الناس وبدأوا يعصرون ، فقال تعالى ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (يوسف:٤٧-٤٩).

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٣٣/٥ ، ١٣٤ ، ويمكن أن يستدل لمن قال : بأن الكفل هو للمثل بدون زيادة بهذه الآية ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ كي نقابل النصيب المضاعف ، بمعنى أن الكفل هو أقل من النصيب ولهذا جاء اللفظ بالكفلين ، والله أعلم .

(٢) رموز الكنوز ٥٩٩/٥ .

(٣) الكليات ، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ٤٩٨ (تحقيق : دكتور عدنان درويش ، ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٨م) .

٦- ترك الرسعني بيان بعض اللطائف البيانية ولم يقف عندها كما اعتدنا من خلال تفسيره، ومن هذه المواضع التي تستحق ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١)، قال الرسعني: «المراد نهيهم عما كانوا عليه من دفن البنات أحياء خشية النفقة عليهن، ثم ضمن الله تعالى الرزق للجميع فقال ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [1]، بينما أحال في تفسير آية الإسراء إلى هذا التفسير فقال: في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٣١)، قال الرسعني: «وما بعده مفسرٌ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

ويبدو أن الرسعني قد جانب الصواب هنا في قوله: «نهيهم عما كانوا عليه من دفن البنات أحياء خشية النفقة عليهن»، والمعلوم أن دفن البنات فضلاً عما ذكر، كان أيضاً خشية العار الذي يلحقهم، لاعتقاد المشركين الباطل بأن البنات يجلبن لهم العار، وقد حكى القرآن عنهم هذا فقال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (النحل:٥٨،٥٩)، ثم إن الآية أشارت إلى النهي عن قتل الأولاد والمعلوم أن الولد يشمل الذكر والأنثى [2]، فلا أعرف كيف ارتضى الرسعني أن يخصّ الأولاد المذكورين بالآية بالإناث دون الذكور وهو ما لا تقوم عليه حجة.

إن ما لم يشر إليه الرسعني في الآيتين المذكورتين هو التقديم والتأخير بين الآباء والأبناء، قدّم القرآن الآباء على الأبناء في آية الأنعام، وقدّم الأبناء على الآباء في سورة الإسراء وهو ما لم يُنبّه عليه الرسعني الذي اعتدنا في تفسيره اهتمامه بمثل هذه اللطائف.

---

(١) رموز الكنوز ٢/٤٦.

(٢) كما قال تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء:١١)، فلفظ أولادكم شمل الذكور والإناث كما هو واضح.

أما عن سبب التقديم والتأخير فقيل : «لا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، وقال في سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ﴾ ، أي : خشية حصول فقر في الأجل ، ولهذا قال هناك ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أي لا تخافوا من فقركم بسببهم فرزقهم على الله ، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً قال ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ؛ لأنه الأهم ها هنا»[1].

وبعبارة أخرى يمكن القول : قُدّم الآباء في سورة الأنعام ، لأن الفقر حاصل وموجود ، وقُدّم الأبناء على الآباء في سورة الإسراء ، لأن الفقر غير موجود ، وإنما يتوقع حدوثه مستقبلاً فناسب تقديمهم ، وهذه هي روعة التعبير القرآني تتجلى بأبهى صورها في مثل هذه التأملات وإبراز تلك اللطائف القرآنية .

* * *

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٥٦/٣ ، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٨٨/١٥ .

obeikandl.com

المبحث الثاني

التفسير الإشاري [1] عند الرسعني وموقفه منه

تمهيد

قبل الكلام أو الحديث عن التفسير الإشاري ، وموقف الإمام الرسعني منه ، يجدر الوقوف عند مدلول التفسير الإشاري أو المراد منه ، وأنواعه ، وشروطه . . . . إلخ .

أولاً : يسمى التفسير الإشاري أيضاً بالتفسير الرمزي ، أو الفيضي ، أو العلم اللدني[2]، أخذاً من قوله تعالى في شأن الخضر عليه السلام ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف:٦٥)، ويسميه بعضهم بالتفسير الصوفي .

ثانياً : تعريفه

يراد من التفسير الإشاري « تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين

---

(١) من أشهر كتب التفسير الإشاري هي : تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله التستري ت سنة ٢٨٣هـ ، وقيل : ٢٧٣هـ ، وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمن محمد ابن الحسين السلمي ت سنة ٤١٢هـ ، وعرائس البيان في حقائق القرآن لأبي محمد روزبهان الشيرازي ت سنة ٦٦٦هـ وغيرها ، انظر : التفسير والمفسرون دكتور محمد الذهبي ٣٣٣/٢ وما بعدها .

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ٣٠٨/٢ ، ومنهج القرطبي في التفسير دكتور القصبي زلط ٣٠٥ ، المقدمات الأساسية لعلوم القرآن لعبد الله الجديع ٣٥٢ .

الظواهر المرادة»[1] ، وقيل : «هو تفسير اللفظ بغير المتبادر من ظاهره أو استخراج معاني كامنة وراء الظاهر»[2].

ثالثاً : أدلته

استدل أرباب هذا التفسير بأدلة عديدة تؤيد ما ذهبوا إليه[3] ، وليس هذا محل عرضها ؛ لأن الكلام سيطول ، وهذه الأدلة معظمها لا تخلو من مقال ونقد ، إلا أن أصحَّ ما استندوا إليه هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما سورة النصر ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، (أن عمر ﷺ سألهم عن قوله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) ، قالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يا ابن عباس؟ قال : أجلٌ أو مَثَلٌ ضُرب لمحمد ﷺ نُعيت له نفسه)[4]، فهذا الفهم إشارة خفية استنبطت من السورة ، لم يصل لمعناها بقية الصحابة رضي الله عنهم .

رابعاً : أقسامه

يقسم بعض أهل العلم التفسير الإشاري على قسمين ، هما :

١- **التفسير الصوفي الإشاري** : وقد سبق تعريفه في الفقرة ثانياً ، وهو الذي يهمنا في هذا المبحث .

٢- **التفسير الصوفي النظري** : المبني على مباحث نظرية وتعاليم فلسفية ، وهذا لا يعنينا في هذا المبحث لا من قريب ولا من بعيد ، ولعل من أهم

---

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٨/١ ، مناهل العرفان للزرقاني ٦٢/٢ ، التفسير والمفسرون للذهبي ٣٠٨/٢ ، وهذا تعريف الذهبي نصًّا ؛ لأن عبارة الآلوسي والزرقاني قريبة جدًّا من هذا التعريف .

(٢) المقدمات الأساسية لعلوم القرآن لعبد الله الجديع ٣٥٢ ، وقريباً لهذا المعنى أشار الدكتور القصبي زلط في رسالته القرطبي ومنهجه في التفسير ٣٠٥ .

(٣) لمعرفة الأدلة والإجابة عنها بالتفصيل يراجع مناهل العرفان للزرقاني ٤٥/٢-٤٧ ، والتفسير والمفسرون للذهبي ٣٠٨/٢-٣١١ ، وابن جزي ومنهجه في التفسير للزبيري ٥٩٨/٢ .

(٤) سبق تخريجه في ص٢٨٠ ، في فقرة آخر ما نزل من القرآن .

الفروق بين هذين القسمين أن التفسير الصوفي النظري يُبنى على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولاً ، ثم يُنزل القرآن عليها ، أما الإشاري فلا يرتكز على مقدمات علمية ، بل يرتكز على رياضة روحية حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية ، والأمر الآخر أن التفسير النظري يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعاني ، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه ، أما الإشاري فلا يرى الصوفي أنه كل ما يراد من الآية ، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله ويراد منه المعنى الظاهر[1] .

خامساً : بعض أقوال العلماء في التفسير الإشاري

قيل : « الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكر تفسيراً ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسالك الباطنية ، وإنما ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير ، ثم قال : « ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإيهام والالتباس »[2]، وقيل : « أما كلام الصوفية في تفسير القرآن فقيل ليس تفسيراً ، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة »[3]، وقيل : « إن تلك الأنظار الباطنة في الآيات المذكورة إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهي راجعة إلى الاعتبار غير القرآني وهو الوجودي »[4]، وقيل : « ذلك من باب الاعتبار والقياس لا من باب دلالة

---

(١) التفسير والمفسرون ، دكتور محمد الذهبي ٣٠٨/٢ بتصرف يسير ، وانظر كذلك : الموافقات للإمام الشاطبي ٢٨٠/٢ (تحقيق : عبد الله دراز ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦ م) .

(٢) قول ابن الصلاح ، انظر : فتاوى ابن الصلاح ١٩٧/١ (تحقيق : دكتور عبد المعطي أيمن قلعجي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م) .

(٣) قول الزركشي ، انظر : البرهان للزركشي ١٧٠/٢ .

(٤) قول الشاطبي ، انظر : الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالشاطبي ٢٨١/٢ (تعليق : عبد الله دراز ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م)

اللفظ ، فهذا من نوع القياس ، فالذي تسميه الفقهاء (قياساً) هو الذي تسميه الصوفية (إشارة) وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل ، كانقسام القياس إلى ذلك»[1].

والخلاصة من الأقوال هذه أن التفسير الإشاري منه ما هو صحيح مقبول ، ومنه ما هو مرفوض ، وقد اشترط أهل العلم لقبوله عدة شروط هي ما سيُذكر في الفقرة التالية .

سادساً : شروط قبول التفسير الإشاري

اشترط بعض العلماء لقبول هذا النوع من التفسير شروطاً هي :

١- أن يصح على مقتضى الظاهر والمقرر في لسان العرب ، ويجري على المقاصد العربية .

٢- أن يكون له شاهد نصًّا ، أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض[2] ، وهذان الشرطان قد فصّل فيهما بعضهم فجعل تلك الشروط أربعة[3] أو خمسة[4] ، وهي ترجع في الحقيقة إلى هذين الشرطين .

فلابد إذاً من شهادة اللغة ، ودليل الشرع لقبول التفسير الإشاري ، وهما شرطان نادراً ما يتحققان في هذا التفسير .

موقف الرسعني من التفسير الإشاري

بعد هذا التمهيد بقي أن نعرف ما هو موقف الرسعني من هذا التفسير ومنهجه في التعامل معه ، وقد أجملت هذا الموقف بالنقاط الآتية :

---

(١) قول ابن تيمية ، انظر : مجموع الفتاوي ، تقي الدين أحمد بن تيميه الحراني ١٣/١٣٠ (عناية وتخريج : عامر الجزار ، أنور الباز ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر ، ط٣ ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م).

(٢) الموافقات للشاطبي ٢/٢٧٣ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن لشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية٥٠ (تعليق : طه يوسف شاهين ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة) .

(٤) مناهل العرفان للزرقاني ٢/٦٤ .

١- يبدو أن الإمام الرسعني ارتضى هذا النوع من التفسير فأورده في تفسيره ، ونسبه لأرباب الإشارات وأحياناً لأهل المعاني[١] ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (آل عمران:٥٥) ، قال الرسعني : « وقال بعض أهل المعاني : إني متوفيك عن شهواتك ، وحظوظ نفسك »[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ (الرعد:١٥) ، قال الرسعني : « وأما أهل المعاني فإنهم يقولون : سجود الكاره لله ، خضوعه وانقياده لما يريده الله تعالى به من عافية ومرض ، وغنى وفقر ، وعز وذل ، وقوة وضعف ، إلى غير ذلك ، قَبِل ذلك أم أبى »[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ وَظِلَٰلُهُم ﴾ ، قال : « وقال أهل المعاني : سجودها تمايلها من جانب إلى جانب ، وانقيادها للتسخير بالطول والعرض »[٤].

---

(١) يشير الرسعني إلى هذا التفسير بقوله : « قال أرباب الإشارات : وأحياناً أهل المعاني : وقد لاحظت في التفسير أن المراد بأهل المعاني لا يقتصر على أصحاب التفسير الإشاري ، فأحياناً يطلقه الرسعني ويريد به علماء النحو ، وانظر على سبيل المثال من رموز الكنوز ٦٣/٣ ، ٣٨٢/٣ ، ٢٧٣/٥ ، ٢٩٢/٨ وغيرها ، وقال الزركشي : « وحيث قال المفسرون : قال أصحاب المعاني فمرادهم مصنّفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج ومَن قبله وغيرهم ، وحيث أطلق المتأخرون أهل المعاني فمرادهم بهم مصنّفو العلم المشهور » . انظر : البرهان ١٤٦/٢ ، ١٤٧ .

(٢) رموز الكنوز ١٩٣/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٦٣/٣ .

(٤) المصدر السابق ٤٦٤/٣ .

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء:٤٣)، يقول الرسعني : « قال بعض أرباب الإشارات ﴿ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ من حب الدنيا »[١].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون:٢) ، قال الرسعني : « وقال بعض أرباب الإشارات يحتاج المصلي إلى أربع خلال حتى يكون خاشعاً : إعظام المقام ، وإخلاص المقال ، واليقين التام ، وجمع الهم »[٢].

فالقارئ لهذه الأقوال يرى أنها من القول المقبول الذي لا يتعارض مع الشرع واللغة ، ولهذا لم يعقب الرسعني عليها بشيء ، ويبدو أنه كان ينتقي مثل هذه الأقوال انتقاء ويوردها في تفسيره .

٢- إذا كان الرسعني قد ارتضى معظم ما ذكره عن التفسير الإشاري فإن هناك مواضع لم يقبل فيها ، ولهذا أورد أقوالاً عن السلف تُنكر مثل هذه الأعمال كالصرع والغشيان عند سماعهم القرآن ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٢٣) ، قال الرسعني : « قال السُّدي : تقشعر من وعيده ، وتلين عند وعده ، وقال قتادة : هذا نعت أولياء الله تعالى تقشعر جلودهم وتلين قلوبهم ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع وهذا من الشيطان »[٣] ، ثم أورد أقوالاً أخرى كلها تحمل هذا المعنى في الذم لهؤلاء ، ولم أذكرها للاختصار .

---

(١) رموز الكنوز ١/٥١٥ ، وسبب نزول الآية يبين أن المراد بالسكر على الحقيقة ، انظر : أسباب النزول للسيوطي ص٦٩ .

(٢) المصدر السابق ٥/١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٦/٥٤١ .

٣- اهتمام وعناية الرسعني ببعض أهل التصوف كالفضيل بن عياض[١]، وبشر الحافي[٢]، والجنيد[٣]، ويحيى بن معاذ الرازي[٤] . . .

وغيرهم[٥]، فأورد عنهم بعض العبارات المؤثرة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:٥٤)، قال الرسعني : «قال رجل للجنيد : كيف رضي المكر لنفسه ، وقد عاب به غيره؟ فقال : ما أدري ما تقول ، ولكن أنشدتني فلانة الطبرانية[٦].

---

(١) **هو** : فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ، أبو علي الزاهد المشهور ، أصله من خراسان ، وسكن مكة ، عابد ، إمام ، روى له الشيخان وغيرهما ، توفي سنة ١٨٧ هـ ، ترجمته في صفة الصفوة لجمال الدين أبي الفرج بن الجوزي ٢/٢٣٧ برقم : ٢١٨ (تحقيق محمود فاخوري ، دكتور محمد رواس ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م)، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ٢٢ برقم : ١ ، (تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩ ، ١٩٩٨م) .

(٢) **هو** : بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء الحافي ، ويكنى أبا نصر ، ولد سنة ١٥٠هـ ، رحل في طلب العلم إلى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، زاهد عابد ، توفي سنة ٢٢٧هـ ، ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/٣٢٥ برقم : ٢٦١ ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٤٢ برقم : ٤ .

(٣) **هو** : الجنيد بن محمد الجنيد الخزاز أبو القاسم القواريري ، زاهد مشهور ، شيخ الصوفية المعروف بالجنيد البغدادي ، أحد العارفين ، له أخبار مشهورة ، توفي ببغداد سنة ٢٩٨هـ ، وقيل ٢٩٧هـ ، ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/٤١٦ برقم : ٢٩٦ ، وطبقات الصوفية للسلمي ١٢٩ برقم : ٢١ .

(٤) **هو** : يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، أبو زكريا ، واعظ زاهد من كبار المشايخ ، له كلام حسن ومواعظ مشهورة ، توفي سنة ٢٥٨ هـ في نيسابور ، ترجمته في صفة صفوة لابن الجوزي ٤/٩٠ برقم : ٦٧٤، طبقات الصوفية للسلمي ٩٨ برقم : ١٤.

(٥) **مثل** : هرم بن حيان : انظر رموز الكنوز ٤/٤٦٩ ، وسالم الخواص ٧/٦٥٠ ، ومالك ابن دينار ٨/٥٢٨ ، وابن السماك ٨/٥١٩ وأبو سليمان الداراني ٥/٦٣٤ .

(٦) لم أعثر لها على ترجمة ، وقد ذكر هذه القصة السُّبكي نقلاً عن كتاب اللمع لأبي نصر الطوسي السراج ، ونسب الإجابة للشبلي ، انظر : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/١٥٧ ، واللمع لأبي نصر السراج ٣٧١ (تحقيق دكتور عبد الحليم محمد ، وطه عبد الباقي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠م) .

فـدَيتُك قـد جُبِلـتُ علـى هَواكَـا فنفسِـي لا تُنـازِعُني سِـوَاكَا
أُحِبُّـك لا ببَعضِـي بَـل بكُلِّـي وإن لـم يُـقِ حُبُّـكَ بـي حِرَاكَـا
ويَقـبحُ مـن سِـواكَ الفِعـلُ عِنـدِي وتَفعَلُـهُ فيَحسُـنُ مِنـكَ ذاكَـا[1]

فقال الرجل : أسألك عن آية من كتاب الله ، وتجيبني عن شعر فلانة الطبرانية ، فقال : ويحك ! قد أجبتك إن كنت تعقل ، إن تخليته إياهم مع المكر به مكر منه بهم »[2].

وفي قولـه تعـالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء:٢٩) ، قال الرسعني : « قال الفضيل بن عياض : لا تغفلوا عن حظ أنفسكم ، فإن من غفل عن حظ نفسه فقد قتلها »[3].

وفي قوله ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ (يونس:٢٤) ، قال الرسعني : « قال يحيى بن معاذ الرازي : لا يزال دينك متمزقاً ، ما دام قلبك بحب الدنيا متعلقاً ، وكان بشر الحافي يقول : مساكين أهل الدنيا هم والله في موضع رحمة »[4].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:٦) ، قال الرسعني : « وقيل لفضيل بن عياض : لو أقامك الله فقال : ما غرك بربك الكريم ؟ ماذا كنت تقول ؟ قال : أقول : غرّني سترك المرضي ، وقال يحيى بن معاذ الرازي : لو أقامني الله بين يديه وقال : ما غرّك بي ؟ لقلت : غرني بك برُّك بي سالفاً وآنفاً »[5].

---

(١) الأبيات لأبي نواس ، وهي من البحر الوافر التام ، انظر : ديوان أبي نواس الحسن ابن هانيء ٣٨٣ (تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت).

(٢) رموز الكنوز ١/١٩١ .

(٣) المصدر السابق ١/٤٨٥ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٣ .

(٥) المصدر السابق ٨/٥١٩ .

obeikandi.com

٤- يستخدم الرسعني أحياناً عبارات قريبة من عبارات أرباب التفسير الإشاري، مما يدل على تأثره بهم، وهذا ليس غريباً خاصة لمن يتعرف على كثير من شيوخه الذين ينتمون لهذه المدرسة، وكما في الأمثلة الآتية التي تؤكد وتوضح تأثر الرسعني بأصحاب التفسير الإشاري.

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١٢٠)، قال: «وفي هذه الآية دلالة على أن سهام الكيد لا تنفذ في دروع الصبر والتقوى، وإرشاد للعباد أن يستعينوا بهما في غمرات المهالك، ومخاوف المسالك»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال:٢٩)، قال الرسعني: «﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني: بترك معاصيه، ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ نوراً وهدى في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل، فمتى كان مقصود الانسان طلب الهدى ومجانبة الهوى أتته الألطاف الخفية، وفاضت عليه الأسرار الإلهية، وضاءت له الأنوار الربانية، فجلت عن مرار قلبه الظلمة الصادّة عن إدراك الأشياء على حقائقها»[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال:٤١)، يقول الرسعني: «فإن قيل: لِمَ قال: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ دون أن يذكره باسمه أو بوصفه الغالب وهو الرسالة؟ قلت: يعلمهم أنه لم يخرجه وصف الرسالة وشرف النبوة وإنزال الكتاب عليه ورفعه ليلة المعراج إليه، عن أن يكون عبداً لله، وقلّ أن يطلق عليه هذه اللفظة إلا مقترنة بأمر عظيم وشرف منيف، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (الإسراء:١)، وقوله تبارك وتعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ

---

(١) رموز الكنوز ٢٧٨/١.

(٢) المصدر السابق ٤٠٨/٢ بتصرف.

عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:١)، وليشرفه باسم العبودية المضافة إليه جلت عظمته . . . ، ثم قال الرسعني : ولأن زيادة الخضوع لله والتواضع لعظمته مما يوجب زيادة الشرف وارتفاع الدرجات للعبد ، ومما تتلذذ به نفوس المحبين لله والعارفين به ، كما قيل :

ذُلُّ الفتى في الحُب مَكرمة وخُضوعِه لحبيبه شَرَفُ »[1].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٣٠)، يقول الرسعني : « وفي قراءة (شعفها)[2] بالعين المهملة[3]...، فالمعنى أن حبه وصل إلى قلبها فأحرقه، ويجوز عندي ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكون معنى هذه القراءة، من قولهم : شعفه الحب ، كأنه غشّى قلبه ، وشَعَفَةُ القلب ، رأسه عند مُعلَّقِ النِّياط[4]، فيكون ذلك إشارة إلى تمكّن حبه من قلبها وسلطته عليه »[5].

٥- ومما يؤكد اهتمام الرسعني بالتفسير الإشاري أيضاً في تفسيره إيراده أحوال جملة من الخائفين، وجعل ذلك في فصل وعنوان خاص بهم تحت: فصل يتضمن الإشارة إلى ذكر جماعة من الخائفين : كما في المثالين الآتيين :

---

(١) رموز الكنوز ٤٣٦/٢ ، ٤٣٧ بتصرف ، والبيت لا يُعرف قائله ، وهو من البحر الكامل .

(٢) شعَف بالعين المحركة : رأس الجبل ، والخصلة في الرأس ، ومن القلب رأسه عند معلق النياط ، ومنه شعفني حبه ، أي غشى الحب القلب ، من فوقه ، انظر : القاموس المحيط للفيروز آبادي ٨٢٤ (شعف) .

(٣) القراءة منسوبة للحسن وابن محيصن ، انظر : إتحاف فضلاء البشر لأحمد البناء ١٤٥/٢ .

(٤) النياط : الفؤاد ، أو عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، القاموس المحيط ٦٩١ ، (نمط ، نيط) .

(٥) رموز الكنوز ٣٢٣/٣ ، ٣٢٤ بتصرف .

obeikandl.com

ذكر الرسعني قولاً ولم يعقب عليه بشيء كقول أبي النجم القرشي الصوفي : [1] « كنت أطوف بالبيت ، فقلت : يا سيدي ! قلت ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ (آل عمران:٩٧) ، من أي شيء؟ فسمعت قائلاً من ورائي : آمناً من النار ، فالتفت فلم أرَ شيئاً »[2]، وهذا القول كان بحاجة إلى تعقيب وتوضيح من الرسعني ، وربما مما يؤاخذ عليه .

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنفال:٢) ، قال الرسعني : « أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال : صحبت أقواماً كانوا بحسناتهم أن تُردَّ عليهم أخوف منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وبإسناده عن مالك ابن دينار[3] أنه قال : لو استطعت أن لا أنام لم أنم ، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم ، ولو وجدت أعواناً لفرّقتهم يُنادون في منار الدنيا كلها : يا أيها الناس ، النار النار[4] ، وقال إبراهيم بن عيسى : [5] ما رأينا أطول حزناً من الحسن ، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة[6] ، وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب ، فما أشتهيه »[7] ، وهذه الكلمات هي مما انتقيته من تلك الأقوال التي ذكرها الإمام الرسعني ، ويبدو أنه ارتضى هذه الأقوال بدليل عدم تعليقه عليها بشيء .

---

(١) لم أعثر له على ترجمة .

(٢) رموز الكنوز ٢٤٩/١ .

(٣) هو : مالك بن دينار يكنى بأبي يحيى ، ولد أيام ابن عباس وكان يكتب المصاحف ، توفى قبل الطاعون بيسير وكان الطاعون سنة ١٣١هـ ، ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٧٣/٣ برقم : ٥٢٢ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٣٦٢/٥ .

(٤) رموز الكنوز ٣٦٠/٢ .

(٥) هو : إبراهيم بن عيسى اليشكري ، الزاهد ، صحب معروف الكرخي ، وسمع من أبي داود الطيالسي ، ترجمته في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣٩٣/١٠ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م) .

(٦) رموز الكنوز ٣٦٢/٢ .

(٧) المصدر السابق ٣٦٣/٢ .

أما عموم منهجه في إيراده هذا النوع في تفسيره ، فيمكن القول بعد هذه الأمثلة أن الرسعني كان مُقلاً من إيراد مثل هذه الأقوال بالنسبة لحجم تفسيره ، ثم إنه يروي مما يؤيده الشرع واللغة وهما الشرطان لقبول مثل هذا التفسير ، فضلاً عن تأثره بشيوخه في الزهد والتقوى والتي هي بُغية كل مسلم كما هو معلوم ، غير أن السؤال الذي ربما يتبادر إلى الذهن كيف وُفق هذا الإمام المحدّث الحنبلي المذهب إلى الجمع بين نشأته الحديثية الأثرية وبين تأثره وإيراده أقوال أعلام التصوف ، والجواب أن لا منافاة بين الاثنين إذا كان التصوف يراد به الزهد والسلوك المنضبط بالكتاب والسنة كزهد ابن المبارك والإمام أحمد وغيرهم ، وأخيراً أترك خاتمة هذا المبحث للإمام الرسعني - رحمه الله - حيث يقول : «ومَن استقرأ سِيَر السلف وأخبارهم وقف على صفة صفوة منهم من ذوي الزهادة والعبادة ، آثروا الآجل على العاجل ، وأعرضوا عن زهرة الدنيا وزخرفها ، رغبة في ثواب الله تعالى ورهبة من عقابه ، وقدّموا أرباب الدين على أصحاب الدنيا»[1].

* * *

(١) رموز الكنوز ٢٤٣/٥ ، ولا يفهم من قول الرسعني هذا أن المسلم يترك الدنيا ويترهبن وينعزل عن الناس ، فهذا مما يخالف نص القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص:٧٧) ، فهذه الآية ميزان دقيق لمن أراد فهم أحوال الزهاد ، والله أعلم .

المبحث الثالث

الاتجاه اللغوي في تفسير الرسعني[1]

يمثل الاتجاه اللغوي أساساً قويًا وركناً لا يُستغنى عنه في تفسير الآيات القرآنية إلى جانب النحو والبلاغة ، فهي تشكل بمجموعها العماد الذي يعتمد عليه المفسر في تناوله القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٥) ، وقد عدّ العلماء هذه العلوم الثلاثة ضرورية لمن يقدم على تفسير القرآن الكريم ، فضلاً عن علوم أخرى[2] .

وقد وردت الأحاديث والآثار التي تحثّ على تعلم اللغة ومعرفة معاني الألفاظ ، ولا يخلو بعضها من مقال وإن كانت بمجموعها تدل على استبانة معاني القرآن والوقوف عند مدلولات تلك الألفاظ بحسب وضعها ، ومن هذه الأخبار ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه)[3] ،

---

(١) صُنّفت كتب عديدة في هذا العلم ، وهي تبحث في ألفاظ القرآن الكريم ، ومن هذه المصنّفات : مجاز القرآن ، لأبي عبيدة المتوفى سنة ٢١٠هـ ، وغريب القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، وغريب القرآن للهروي المتوفى سنة ٤٠١هـ ، والمفردات للراغب الأصبهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ ، وكتب معاني القرآن للفراء والزجاج والأخفش وغيرها وقد سبق ذكرها في مصادر الرسعني في تفسيره .

(٢) البرهان للزركشي ٦/٢ و ١٥٣ ، الإتقان للسيوطي ٤٦٤/٢ وما بعدها .

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ٤٣٩/٢ ، وابن أبي شيبة في المصنّف في كتاب فضائل القرآن ٤٥٦/١٠ برقم : ٩٩٦١ ، والبيهقي في شعب الإيمان باب تعظيم القرآن ٤٢٧/٢ ، برقم : ٢٢٩٢ ، والحديث ضعيف في سنده عبد الله بن سعيد المقري ، قال عنه الحافظ ابن حجر : متروك ، انظر تقريب التهذيب ٣٠٦ ، وضعفه الذهبي في التلخيص ولم يوافق الحاكم على تصحيحه .

والمراد بإعرابه ـ كما يقول الإمام السيوطي ـ « معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة ، وهو ما يقابل اللحن ؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ، ولا ثواب فيها »[1]، وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :(إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب)[2]، ومن بعده تلميذه مجاهد يقول : (لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب)[3] ، وإلى هذا المعنى يشير الإمام مالك أيضاً فيقول : (لا أُوتي برجل يُفسر كتاب الله غير عالم بالعربية إلا جعلته نكالاً)[4]، ويتبين من خلال هذه الآثار أن معرفة هذا الفن أمر ضروري للمفسر ، وعدم إتقان علوم اللغة العربية إعراباً واشتقاقاً ... إلخ ، يؤدي إلى الوقوع بالخطأ ، وربما ينحرف الكلام عن معناه الحقيقي والمراد منه .

لقد حاول الإمام الرسعني ـ رحمه الله ـ أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم ، وأن يوضحها بلغة العرب التي بها نزل القرآن ويبين مدلولات تلك الألفاظ بما يملكه من خزين لغوي ، وكان لتتلمذه على أبي البقاء العكبري الأثر الواضح في التفسير ، فضلاً عن استدلالاته بعد اطلاعه على ما قاله وكتبه أئمة اللغة من قبل ، وهذا واضح لمن يقرأ ويتصفح التفسير .

فلا غرابة أن يعتمد منهج الرسعني في تفسيره على عدة قواعد وأُسس لبناء هذا الصرح ، منها : الأساس اللغوي ، والنحوي ، والبلاغي ، وقد أفردت لكل

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ، تفسير سورة (ن والقلم) ٢/٤٩٩ ، وابن أبي حاتم ١٠/٣٣٦٦ برقم : ١٨٩٥٣ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/١٨٣ برقم : ٧٤٦ (تحقيق : عبد الله بن محمد الحاشدي ، مكتبة السوادي ، السعودية ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م) ، وقال الحاكم : وهذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

(٣) الإتقان للسيوطي ٢/٤٦٤ .

(٤) أخرجه البيهقي في باب تعظيم القرآن ، فصل ترك التفسير بالظن ٢/٤٢٦ برقم : ٢٢٨٧ ، وفيه (يفسر ذلك إلا جعلته نكالاً) .

منها مبحثاً ، حيث قسمت المبحث الواحد إلى فقرتين مقرونتين بالأمثلة ، وكان بالإمكان أن أختصره بمبحثين أو مبحث واحد ، ولكن رأيت من المناسب أن أعتمد هذا المسلك كي تبرز ملامح صورة اللغة والنحو والبلاغة بأزهى ألوانها في تفسير الرسعني ومن جميع زواياها ، ويستبين القارئ لطائف خفاياها ، ويستشعر المتأمل في هذا السِفْر بديع نسجها ، وحسن الاستدلال والاختيار بين ثناياها .

الاتجاه اللغوي في تفسير الرسعني

يشمل هذا المبحث اتجاه الرسعني في معرفة معاني الألفاظ اللغوية ، ومسلكه وعنايته بالشعر في تفسيره والاستشهاد به ، وعليه يقسم هذا المبحث على قسمين .

أولاً : معاني الألفاظ اللغوية

يلحظ قارئ تفسير الرسعني عنايته بإيراد معاني الكلمات وتصريفها لبيان معاني الآيات الكريمة ، وقد كان مسلك الرسعني في هذا الخصوص يتمثل بالنقاط الآتية :

١- يهتمّ بمعاني الكلمات القرآنية الغريبة ، فيوّضح المراد من تلك الكلمة ويبيّن مدلولها اللغوي ليستعين بها على تفسير الآية كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء:٣٤) ، قال الرسعني : « والنشوز والنشوص بمعنى واحد ، وهو : ترّفع المرأة عن طاعة زوجها ، مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع من الأرض »[(١)] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧) ، قال الرسعني : « والإصر الثقل الذي يأصرهم ،

---

(١) رموز الكنوز ٤٩٦/١ ، وانظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ٥٢٧ (نشز) ، ٦٣٢ (نشص) ، حيث ذكر ما أشار إليه الرسعني .

أي يحبسهم عن الحركة ، يقال : أصره ، يأصره ، أصراً ، والموضع مأصِر ، ومأصَر (بكسر الصاد وفتحها) ، والجمع مآصير»[1] .

٢- يورد الرسعني ـ أحياناً ـ أكثر من معنى للكلمة ، ويبيّن مدلولها وما تحتمله من معاني دون أن يرجّح أحدها ، وكأنه يرتضي جميع الأقوال التي ذكرها ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ (آل عمران:١٤)، يقول الرسعني : «﴿ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾ ، الراعية ، قال ابن قتيبة : يقال : سامت الخيل ، فهي سائمة ، إذا رعت ، وأسمتها فهي مسامة وسومتها فهي مسومة ، إذا رعيتها ، وقيل المسوّمة المعلّمة بالشيات[2] والألوان ، وقال عكرمة ومجاهد ، المسوّمة : الحسان»[3].

وفي قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ (الحجر:٩١) ، قال الرسعني : «عضين : جمع عضة ، مثل عِزة وعِزين ، وأصلها عضوة ، من عضى الشاة ، إذا جعلها أعضاء ، والمعنى : عضوا القول فيه وفرّقوه ، وقال عكرمة : العضة السحر ، بلسان قريش ، يقولون للساحرة عاضهة»[4].

٣- عنايته بإيراد اللغة من خلال القراءات ، ونسبة ذلك إلى لغات القبائل ، وقد سبق مثل هذا في مبحث القراءات حيث فُصِّل فيه القول ، ولا ضير أن نذكر مثالاً له هنا .

---

(١) رموز الكنوز ٢/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، والقاموس المحيط ٣٤٣ (أصر) .

(٢) الشيات : جمع وشي ، وهي نقش الثوب ويكون من كل لون ، انظر : القاموس المحيط ١٣٤٣ (وشى) .

(٣) رموز الكنوز ١/١٣٦، ١٣٧ بتصرف ، والقاموس المحيط ١١٢٤ (سوم).

(٤) رموز الكنوز ٣/٦٣٥ بتصرف ، والقاموس المحيط ١٢٤٩ (عضه) ، وانظر كذلك في رموز الكنوز ، كلمة الولاية بفتح الواو وكسرها ٢/٤٨٠ وغيرها كثير .

ففي قوله تعالى ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:١٥) ، قال الرسعني :« قرأ جمهور القرّاء بكسر الراء ، وهي لغة قريش ، وقرأ أبو بكر[١] عن عاصم (ورُضوان) بضم الراء حيث جاء وهي لغة تميم وقيس ، قال الزجاج : تقول رضِيت الشيء أرضاه ، رضاً ، ومرضاة ، ورِضواناً ورُضواناً »[٢] .

٤- يذكر معاني الألفاظ للكلمة ، ثم يرجّح أحدها ، وهذه المعاني للكلمات لا تقتصر على الآيات القرآنية ، بل تتعداها إلى الأحاديث النبوية أيضاً فيوضح ما يحتاج منها للتوضيح ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠) ، ذكر الرسعني حديثاً بسنده فقال : « عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة)[٣] ، ثم قال الرسعني : ما معنى أحصاها؟ قلت عنه أجوبة ، **أحدها** : أن معناه حفظها ، **والثاني** : أن المعنى من أطاقها كقوله تعالى ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (المزمل:٢٠) ، **والثالث** : أن المعنى مَنْ عقَلها وآمن بها دخل الجنة ، والصحيح أن معنى الإحصاء : الحفظ ، لما ذكرناه أولاً ولما كان في بعض طرق الصحيح (من حفظها دخل الجنة) ذكرتها لتحفظ ....»[٤].

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة:٣٧)، يقول

---

(١) هو : شعبة بن عياش بن سالم ، أبو بكر الأسدي الكوفي ، ولد عام ٩٥هـ ، أحد الرواة عن عاصم ، إمام في القراءة ، وتوفي سنة ١٩٣هـ ، وقيل : ١٩٤هـ . انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ١/٣٢٥-٣٢٧ .

(٢) رموز الكنوز ١/١٣٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشروط ، باب ما يجوز من الاشتراط والثنا في الإقرار ..... برقم : ٢٥٨٥ ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة ، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم : ٢٦٧٧ ، وفيهما « مائة إلا واحداً» ، « وحفظها »

(٤) رموز الكنوز ٢/٣١٧ ، ٣١٨ بتصرف .

الرسعني : « قال الزمخشري : النسي مصدر نسأه ، إذا أخّره ، يقال : نسأه نسأً ونساءً ونسيئاً ، كقولك : مسّه مسّاً ومساساً ومسيساً ، وقال الجوهري وغيره : هو فعيل بمعنى مفعول ، من قولك : نسأت الشيء فهو منسوء ، إذا أخّرته ، ثم صرفوا منسوءاً إلى نسيء كما صرفوا مقتولاً ومجروحاً إلى قتيل وجريح ، وقيل : نسأت الشيء نسأً إذا أخّرته ، وكذلك أنسأته ، ثم قال الرسعني : واختلفوا في أصل الكلمة ، فذهب الأكثرون إلى أنها من التأخير ، قال الأخفش : ومنه النسيء في البيع ، ويقال : أنسأ الله في أجلك ، وقال قطرب[1] : هو من الزيادة ، فكل زيادة حدثت في شيء فهو نسيء ، وقال : ومنه قد نسأت الناقة وأنسأتها ، إذا زجرتها ليزداد سيرها ، والأول أظهر وأشهر »[2].

ويتبين من خلال هذا المثال أن الرسعني قد استطرد كثيراً في بيان مدلول لفظ هذه الكلمة على غير منهجه الذي يميل غالباً إلى الاختصار ، فضلاً عن ترجيحه لأحد المعاني .

٥- يورد معاني الكلمة ويسعى إلى توجيه تلك المعاني وما يترتب عليها من آثار ، وبهذا يتبين أن الرسعني لم يكن مجرد ناقل للأقوال ، وإنما توجيهه يعطي الانطباع بأنه ذو نظرة ثاقبة ، ودراية واسعة في فهمه لمعاني الألفاظ اللغوية ، ولما يمثله من خزين ورصيد لغويين لا يستهان بهما ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٤)، قال الرسعني :« وأصل الإحصان : المنع ، ومنه الحِصن والحِصان ، ويطلق على ذوات الأزواج ، والعفائف والحرائر ، فإن كان المراد : ذوات

---

(١) هو : محمد بن المستنير بن أحمد ، أبو علي النحوي المعروف بقطرب ، تلميذ سيبويه ، معتزلي العقيدة ، له مصنّفات منها : المثلث ، النوادر ، الأصوات ، العلل في النحو ، الأضداد وغيرها ، توفي سنة ٢٠٦هـ ، انظر : ترجمته في بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي ١/٢٤٢ برقم : ٤٤٤ .

(٢) رموز الكنوز ٢/٤٩١ ، ٤٩٢ .

الأزواج - وهو الأظهر في التأويل لما ذكرناه من سبب التنزيل - فيكون المعنى : وحرمت عليكم المحصنات إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا في الحروب . . . ، وإن كان المراد : العفائف ، فالمعنى : هنّ حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم منهن بالنكاح أو غيره ، وإن كان المراد : الحرائر ، فالمعنى : وحرمت عليكم الحرائر بعد الأربع إلا ما ملكت أيمانكم فإنهن غير محصورات بعدد»[1].

وفي قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (الأعراف:٣٧) ، يقول الرسعني : «المراد بالتوفي : الموت ، وقيل : الحشر إلى النار .

فعلى الأول : المراد بالرسل : ملك الموت وأعوانه ، وعلى الثاني : ملائكة العذاب»[2] .

٦- عناية الرسعني في تفسيره بمباحث لغوية أخرى - وقد سبق مثلهما كثير - حاول من خلالها أن يوضح اللفظ القرآني ، ويبين مدلوله ، ومن هذه المباحث الاشتقاق[3] ، فيأخذ المعنى اللغوي للكلمة ويذكر ما يقترب لهذه الكلمة من حيث المعنى ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ (النساء:١٤٤)، يقول الرسعني : «﴿ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أي : حجة ظاهرة ، واشتقاقه من السليط : وهو ما يستضاء به ، والزيت : سليط ، والسلاطة من التسلط : وهو

---

(١) الرموز الكنوز ٤٧٣/١ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١١٥/٢ .

(٣) الاشتقاق : أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة ؛ لتركيب لها ، كضارب من ضرب ، وقيل هو أخذ كلمة من كلمة أو أكثر مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى جميعاً ، انظر : المزهر في علوم اللغة لجلال الدين السيوطي ٣٤٦/١ (تحقيق : مجموعة ، دار التراث ، القاهرة ، ط٣) ، والاشتقاق لعبد الله أمين ١ (لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٦م).

القهر والظهور ، والسَّليطة : المرأة الصخابة ، والسليط : الفصيح اللسان ، ومنه السلطان ، كل ذلك يرجع إلى أصل واحد»[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ (الأنعام:١٣٨) ، يقول الرسعني : «والحِجْر : الحرام ، وأصله من الحَجْر ، وهو المنع ، ومنه فلان في حجر القاضي ، أي في منعه الصاّد له عن التصرف في ماله ، والحِجْر : العقل ؛ لأنه يمنع من التورط في المهالك ، وضم الحاء لغة قرأ بها الحسن البصري وقتادة ، «وحِجْر» فعل بمعنى مفعول ؛ كالذبح والطحن ، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع»[2].

٧- حاول الرسعني أن يفرق بين الألفاظ التي يطلق عليها أو يعتقد أنها من المترادفات .

ففي قوله تعالى ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران:٢٧) ، قال الرسعني : «قرأ نافع وأهل الكوفة إلا أبا بكر (الميّت) بالتشديد ، وخفّفه الباقون . . . ، وكلهم شددّ ما لم يمت نحو ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ (الزمر:٣٠) ، وخفّف ما هو ميت لما فيه هاء التأنيث ، نحو ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (الزخرف:١١) ، والقراءتان لغتان فاشيتان ، قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء[3]

فجمع بين اللغتين ، والأصل التشديد ، والتخفيف فرع عليه ، لثقل التشديد والكسر على الياء»[4].

---

(١) رموز الكنوز ٦٥٣/١ .

(٢) المصدر السابق ١٩/٢ بتصرف .

(٣) البيت لعدي بن الرعلاء الغساني ، وهو من البحر الخفيف ، انظر : لسان العرب لابن منظور ١٤٧/١٤ (موت) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٧٨/١ .

(٤) رموز الكنور ١٤٨/١، ١٤٩ بتصرف .

وفي قوله تعالى ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٢٨) ، وقوله تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩)، قال الرسعني : «الشُّح : البخل مع الحرص ، وذهب قوم إلى أن الشُّح والبخل بمعنى واحد»[١] ، ثم ذكر الرسعني أقوالاً عديدة منها : «أن الشح أبلغ في المنع من البخل ، وإنما الشح بمنزلة الجنس ، والبخل بمنزلة النوع ..»[٢]، ويبدو أن الرسعني يميل إلى الفرق بين الكلمتين حيث صرَّح أولاً بأن الشُّح المراد به : البخل مع الحرص ، وبمفهوم المخالفة يظهر أن معنى البخل يكون مع عدم الحرص ، فيكون الشُّح أعم وهو أشد من البخل ، ولهذا علّق الله تعالى الفلاح على من وُقيَ شح نفسه، قال الرسعني :« وأضيف الشُّح إلى النفس؛ لأنه غريزة فيها .. وتلمح هذه الآية كيف حكم بفلاح من وُقِي شح نفسه وجزم به وأكده فقال ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وقال في موضع آخر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠)، فجاء بصيغة الترجي ، ولم يأت بها ها هنا ، نظراً إلى ما ذكرناه من المعنى»[٣].

٨- يميل الرسعني إلى وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم ويصرّح بذلك .

ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ (يوسف:٤) ، قال الرسعني : «﴿ يُوسُفُ ﴾ اسم عبراني ، وقيل : عربي وليس بصحيح ؛ لأنه لو كان عربيًّا لانصرف ، لخلوه من سبب آخر سوى التعريف ، فإن قلت : فما تقول فيمن قرأ : (يوسِف) بكسر السين ، أو (يوسَف) بفتحها ، هل يجوز على قراءته أن يقال : هو عربي ، لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل والمفعول من آسف ، وإنما منع الصرف من التعريف ووزن الفعل؟ .

---

(١) رموز الكنوز ١/٦٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٨/٥٩ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٨/٥٨، وقال أبو هلال العسكري : «الشح الحرص على منع الخير ، والبخل منع الحق» ، انظر : الفروق في اللغة ، الحسن بن عبدالله المعروف بأبي هلال العسكري ٣٠١ (تحقيق : جمال عبد الغني ، الرسالة ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م).

قلت : لا ؛ لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أن الكلمة أعجمية فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى . . . »[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (الواقعة:١٨) ، قال الرسعني : « قال أهل اللغة : (الأباريق) فارسي معرّب ، وقد تكلمت به العرب قديماً ، قال عَدي بن زيد :

ودعا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق[2]

وكذلك تطرق الرسعني إلى هذه المسألة في كلمات أخرى مثل (قناطير)[3]، و(زكريا)[4] ، و(يحيى)[5] وغيرها من المفردات .

٩- استخدام الرسعني اللغة كأداة من أدوات الترجيح أحياناً ، والاحتكام إليها في تأييده لمعنى ما ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ (النساء:١٢) ، يقول الرسعني:« كثر أقوال الصحابة في تفسير الكلالة،فاختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنها عبارة عمن سوى الوالد والولد،وهو الصحيح،وبه قال: علي،وابن مسعود، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير - رضي الله عنهم - ، وأما عمر رضي الله عنه فكان يقول : الكلالة : من سوى الولد . . ثم عقّب الرسعني قائلاً : والدليل على صحة قول أبي بكر وجوه :

منها : التمسك باشتقاق لفظ الكلالة ، يقال : كلّت الرحم بين فلان وفلان ، إذا تباعدت القرابة ، وحمل فلان عن فلان ، ثم كلَّ عنه ، إذا تباعد ، فسُمِّيت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه»[6] ، ثم ذكر أكثر من وجه في تعليله

---

(١) رموز الكنوز ٢٧٠/٣ .

(٢) المصدر السابق ٥٩٤/٧ ، ٥٩٥ ، والبيت لعدي بن زيد ، وهو من البحر الخفيف ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٦٧/٢ (برق) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ١٨٦/٥ .

(٣) رموز الكنوز ١٣٤/١ .

(٤) المصدر السابق ١٦٣/١ .

(٥) المصدر السابق ١٦٩/١ .

(٦) المصدر السابق ٤٤٠/١ ، ٤٤١ بتصرف .

اللغوي هذا واستطرد كثيراً ، ولعل هذا يُغني كشاهد ودليل على منهج الرسعني في الترجيح بسبب اللغة .

أما في مجال الاحتكام إلى اللغة كترجيح معنى أو تأييد قول ، كما في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٣١) ، قال الرسعني : « وفي الآية ردّ على الجهمية[١] في قولهم : إن النار لم تُخلق بعد »[٢] ، فقد استخدم الكلمة ﴿ أُعِدَّتۡ ﴾ للرد على الجهمية .

وفي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٢) ، يقول الرسعني : « وفي قوله ﴿ صَرَفَكُمۡ ﴾ ، إبطال لمذهب القدرية[٣]، حيث أضاف الصرف إلى نفسه ، وجعله من فعله »[٤] .

ثانيا : الشّعر في تفسير الرسعني

تكمن أهمية الشعر العربي في تفسير غريب القرآن[٥] ، وبما يخدم النص القرآني أمراً لا غنى عنه ، إذ حفلت معظم كتب التفسير قديماً وحديثاً بهذا

---

(١) هي : إحدى الفرق الكلامية ، وسُمّيت بالجهمية نسبة للجهم بن صفوان الذي يُعدّ أولّ من قال بآرائهم الفاسدة التي تتمثل في عدم إثبات جميع أسماء الله تعالى وصفاته ، والقول بالإرجاء في فعل الإنسان ، وأن القرآن مخلوق ، وكانوا في أواخر عهد بني أمية . انظر : الملل والنحل للشهرستاني ٦٧/١، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ١٠٤٠/٢.

(٢) رموز الكنوز ٢٢٩/١ .

(٣) سبق التعريف بها ص ١٠٤ .

(٤) رموز الكنوز ٣٣٣/١ .

(٥) قال الرافعي : « في القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة ، أو نافرة ، أو شاذة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هي التى تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس ، ثم قال : ومنشأ الغرابة فيما عدّوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة ، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ...»، انظر : إعجاز القرآن ، مصطفى صادق الرافعي ٧١، ٧٢ بتصرف (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٩، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م).

النوع ، فضلاً عما جاء عن الصحابة والتابعين من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر .

قال أبو بكر الأنباري[1] : « قد جاء عن الصحابة والتابعين الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر كثيراً ، وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك ، وقالوا : إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن ، قالوا : وكيف يجوز أن يُحتج بالشعر على القرآن ، وهو مذموم في القرآن والحديث ، قال : وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ؛ لأن الله تعالى قال ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (الزخرف:٣) »[2].

ومما ينبغي أن يشار إليه ها هنا ما أُثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب)[3] ، وقد

---

(١) هو : محمد بن القاسم بن بشار المعروف بابن الأنباري ، إمام ، حافظ ، لغوي ، ولد عام ٢٧٢هـ ، تتلمذ على والده ، وله مصنّفات منها الكافي ، والوقف والابتداء ، والمشكل ، توفي سنة ٣٢٨هـ . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ١٥/٢٧٤ .

(٢) الإتقان للسيوطي : ١/٣٨٦ ، ٣٨٧ بتصرف ، وقد ردّ الإمام عبد القاهر الجرجاني على إنكار بعض العلماء الاستشهاد بالشعر فقال : « أيّاً من كان هذا رأياً له ، فهو في ذلك على خطأ ظاهر ، وغلط فاحش ، وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر ، وبالضد مما جاء به الأثر ، وصح به الخبر ، ثم قال : هذا وراوي الشعر حاك ، وليس على الحاكي عيب ، ولا عليه تبعة ، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً أو يسوء مسلماً ، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار ، فانظر إلى الغرض الذي له روى الشعر ، ومن أجله أريد ، وله دوّن ، تعلم أنك قد زغت عن المنهج ، وأنك مسيء في هذه العداوة وهي العصبية منك على الشعر . انظر : دلائل الإعجاز ، عبد القاهر ابن عبد الرحمن الجرجاني ١١، ١٢ (تعليق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م) .

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ٢/٤٩٩ ، تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ (القلم:٤٢) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

ذكره الرسعني واستشهد به[1] مما يدل على مسلكه ورضاه بأن يكون الشعر دليلاً على اللغة والنحو ومبيناً لغريب القرآن ، وما يدلل على هذا تلك الثروة الكبيرة من الشعر التي استشهد بها الرسعني في تفسيره ، وإذا كان الرسعني قد استخدم الشعر كثيراً في تفسيره موظفاً إياه في إيضاح المعنى ، أو ترجيح لغة أو نحو . . . إلخ ، فإنه لم يأت ببدع من القول ؛ لأن لغة العرب وأشعارها كانت أساساً اعتمد عليه الصحابة والتابعون ـ رضي الله عنهم ـ في تفسير غريب القرآن ، « فقد سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة:٣٥) ، فقال ابن عباس : الوسيلة ، الحاجة ، فقال الرجل : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم ، أما سمعت عنترة العبسي[2] وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي »[3]

ويمكن تلخيص منهج الرسعني ومسلكه في توظيف الشعر في تفسيره واستدلاله به في النقاط الآتية :

١- في تفسير الرسعني ثروة لا يستهان بها من الشعر خاصة إذا ما علمنا أن له باعاً في الشعر نظماً وانتقاءً ، وقد استشهد الرسعني في تفسيره بشعر فحول

---

(١) رموز الكنوز ٢٣٩/٨ .

(٢) هو : عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم العبسي ، شهد حرب داحس والغبراء ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، وله معلقة معروفة ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لعبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة ٢٤٣/١ برقم : ١٩ (تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م) .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٠٤/١٠ برقم ١٠٥٩٧ ، والحديث في سنده جويبر ، قال عنه الحافظ ابن حجر : جويبر راوي التفسير ضعيف جدًّا ، انظر : تقريب التهذيب : ١٤٣ ، وهذه الأسئلة ذكرها السيوطي في الإتقان وهي كثيرة ٣٨٨/١-٤١٥ ، والبيت من البحر الكامل ، وينسب لخزر بن لوذان السدوسي ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٢٨/١٠ (عتق) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٤٢٩/١ .

الشعراء الذين ينتمون لطبقات[1] مختلفة وكان ينسب الشعر لقائله وأحياناً لا ينسبه[2] ، ولعل ما سيأتي من الأمثلة يمكن أن يكون خير مثال لهذا ، كما ينبغي الإشارة إلى أن الرسعني أحياناً لا يذكر بيت الشعر كاملاً ويكتفي بصدره أو عجزه[3] .

٢- يبيّن الرسعني أحياناً معاني الكلمات القرآنية ، وإيضاح مدلولاتها من خلال استشهاده بالشعر ، وكما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران: ٣٠) ، قال الرسعني : « والأمد ، الغاية ، قال الطرماح : [4]

---

(١) قال صاحب خزانة الأدب : إن الشعراء ينقسمون إلى أربع طبقات : هي **الطبقة الأولى** : الشعراء الجاهليون ، وهم قبل الإسلام كامرئ القيس ، والأعشى . **الطبقة الثانية** : المخضرمون ، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، كلبيد وحسان . **الطبقة الثالثة** : المتقدمون ، ويقال لهم الإسلاميون ، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير ، والفرزدق . **الطبقة الرابعة** : المولّدون ، ويقال : لهم المحدثون ، وهم من بعدهم إلى زماننا ، كبشار بن برد ، وأبي نواس . فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً ، وأما الثالثة ، فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها ، وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً ، وقيل : يستشهد بكلام من يوثق به منهم ، واختاره الزمخشري في الكشاف واستشهد بشعر أبي تمام وقال : « وهو إن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه » ، بينما ذهب ابن قتيبة إلى صحة الاستشهاد بشعرهم دون تمييز ، فقال : « ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ». انظر : خزانة الأدب للبغدادي ١/٥-٧ والكشاف للزمخشري ١/٢٢٠ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٦٤ .

(٢) فمما نسبه لقائله انظر : ١/١٦٢ ، ٤/١٦٦ ، ٥/٥٨ ، ومما لم ينسبه انظر : ١/١٤٩ ، ٢/٣٩ ، ٤/٤٥٦ ، ٥/١٤٧ وغيرها .

(٣) رموز الكنوز ٢/١٤١ ، ٣/٥٣ ، ٤/٣٣٦ ، ٣٧٥ ، ٧/٢٤٨ ، ٨/٥٢٦ .

(٤) هو : الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر الطائي ، شاعر إسلامي ، ولد في الشام ، وتوفي سنة ١٢٥هـ ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٥٧٠ برقم : ١٠٦ .

كـل حـيٍّ مسـتكمل عِـدّة العمـر ومُـود إذا انقضـى أمـده»[1]

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤) ، يقول الرسعني : « ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : أظهره واجهر به ، واشتقاقه من الصديع ، وهو الصبح قال الشاعر :

تـرى السـرحان مفترشـاً يديـه كـأن بيـاض غُرّتـه صـديع»[2]

وفي قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٠) ، قال الرسعني : « المعين : هو الماء الجاري على وجه الأرض الظاهر لعين الناظر ، ومنه قول جرير[3] .

إن الـذين غَـدوا بليـل غـادروا وشـلاً بعينـك مـا يـزال معينـا»[4]

٣- كما استدل الرسعني بالشعر كثيراً في قضايا النحو والإعراب ، وما يتعلق بهما من مباحث ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠) ، يقول الرسعني : « وقوله تعالى ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ ﴾ ، أي : تحية بعضهم لبعض ، وتحية الله لهم ، وتحية الملائكة إياهم : سلام ، والنون في قوله : ﴿ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه الحمد على إضمار الشأن ، كقول الشاعر :

---

(١) رموز الكنوز ١٥٤/١، والبيت من البحر الخفيف ، انظر : ديوان الطرماح ١٣٩، وفيه « إذا انقضى عدده » (تحقيق : دكتور عزة حسن ، دار الشرق العربي ، بيروت ، ط٢).

(٢) رموز الكنوز ٦٣٨/٣ ، والبيت لعمرو بن معد يكرب ، وهو من البحر الوافر ، وذكر بلفظ آخر ، كأن بيان لبته صديع ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٢١٢/٨ (صدع) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة لإميل بديع ٣٦٢/٤ .

(٣) هو : جرير بن عطية بن حذيفة ، من فحول شعراء الإسلام ، وعاش أكثر من ثمانين عاماً ، وتوفي باليمامة . انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥٦/١ برقم : ٨٥ .

(٤) رموز الكنوز ١٢٦/٥ ، وهو من البحر الكامل ، انظر : ديوان جرير ٤٧٦ ، وفيه « إن الذين غدوا بلُبّك غادروا » ، (دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٨٠/٨ .

. . . . . أن هالك كل من يحفى وينتعل»[1]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ (هود:٩) ، قال الرسعني : «اللام في ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لتوطئة القسم ، والتقدير : والله لئن ، وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ ، جواب القسم لا جواب (إنْ) ؛ لأن جواب (إنْ) مجزوم ، أو الفاء ، كقولك : إن تأتني آتك ، وإن تأتني فزيد يكرمك ، وإذا قلت : لئن تأتني ، لم يجز أن تقول : آتك ، وإنما تقول : لآتينك ، والدليل على هذا قوله تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) ، فأغنى عن جواب الشرط ، ومثله قوله كُثير[2]

لـئِن عـاد لـي عبـد العزيـز بمثلهـا وأمكَنَنـي منهـا إذاً لا أُقِيلُهـا[3]

أي والله لا أُقِيلها ، ولو كان جواب (إن) لقال : أقلها ، بالجزم»[4].

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:٢٥) ، قال الرسعني : «الباء في ﴿ بِإِلْحَادٍۭ ﴾ زائدة ، كقوله تعالى ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ (المؤمنون:٢٠) ، وقول الأعشى[5] .

---

(١) رموز الكنوز ١٤/٣ ، ١٥ ، والبيت للأعشى ، وصدره : في فتية كسيوف الهند قد علموا ، والبيت من البحر البسيط ، انظر : خزانة الأدب للبغدادي ٤٢٦/٥ ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢٤٣/٦ .

(٢) هو : كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي ، أبو صخر ، شاعر ، متيم مشهور ، له أخبار مع عزة بنت جميل الضمرية ، توفي سنة ١٠٧هـ بالمدينة ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٩٤/١ برقم : ٩١ .

(٣) البيت من البحر الطويل ، انظر : خزانة الأدب للبغدادي ٤٧٣/٨ ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لأميل بديع ٣٣٨/٦ .

(٤) رموز الكنوز ١٢٦/٣ ، ١٢٧ .

(٥) هو : ميمون بن قيس بن جندل ، أبو بصير المعروف بأعشى قيس ، والأعشى الكبير ، ويُعدّ من شعراء الطبقة الأولى ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، ولُقبَ بالأعشى لضعف بصره ، توفي سنة ٧هـ ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥٠/١ برقم : ٢١ .

ضـــمنت بـــرزق عيالنـــا أرماحنـــا . . . . . [1].

وقال الآخر :

نحـن بنـو جعـدة أربـاب الفلـج[2] نضـرب بالسـيف ونرجـو بـالفرج[3]

أي : ضمنت رزق ، ونرجو الفرج ، وأنشدوا أيضاً :

بـوادٍ يمـانٍ ينبـت الشَّـث[4] صـدره وأسـفله بـالمرخ[5] والشـبهان[6].

أي : وينبت أسفله المرخ والشبهان .

والشث : شجر طيب الريح ، مرّ الطعم ، والمرخ : شجر سريع الوري ، . . . والشبهان : النمام من الرياحين[7] .

وفي هذا المثال يمكن التنبيه على عدة أمور سلكها الرسعني ، أحدها : أنه أحياناً يختصر بيت الشعر عندما يستشهد به فيذكر صدر البيت أو عجزه ، وثانيها : يستشهد بأكثر من بيت شعر في المسألة الواحدة[8] ، وثالثها : يوضح معاني الكلمات الغامضة في الشعر التي تحتاج لبيان ، وهذا قليل جدًّا قياساً لما استشهد به من الشعر .

---

(١) هذا صدر البيت ، وعجزه : بين المراجل والصريح الأجردا ، وهو من البحر الكامل : انظر لسان العرب لابن منظور ١١٦/٣ (جرد)، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ١٨٤/٢، وفيها صدر البيت : ضمنت لنا أعجازه أرماحنا.

(٢) الفلج : المراد به الظفر والفوز ، القاموس المحيط للفيروز آبادي ٢٠٢ (فلج).

(٣) البيت للنابغة الجعدي ، وهو من البحر الرجز ، انظر : شعر النابغة الجعدي ٢١٥ (المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م).

(٤) الشَّث : نبت طيب الريح يدبغ به ، انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ١٧٠ (شث).

(٥) المرخ : شجر سريع الوري ، انظر : القاموس المحيط ٢٦٠ (مرخ).

(٦) الشبهان : بفتحتين : نبت شائك ، له ورد لطيف أحمر ، وبضمتين : شجر الحضاة ، أو الثمام أو النمام ، انظر : القاموس المحيط ١٢٤٧ (شبه) ، والبيت للأحول اليشكري ، وهو من البحر الطويل ، انظر : لسان العرب لابن منظور ١٨/٨ (شبه) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ١٩٧/٨.

(٧) رموز الكنوز ٣٧/٥ ، ٣٨ بتصرف .

(٨) انظر : رموز الكنوز على سبيل المثال ١٣٣/٢ ، ٢٧٤ ، ٥٢٠/٣ وغيرها .

٤- كما لا تخفى عناية الرسعني بالشعر لتوجيه القراءات أو تعضيد أو ترجيح قراءة ما، وقد سبق ذكر ذلك في مبحث القراءات بما يغني، ويمكن الاكتفاء بالمثال الآتي : ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ (القصص:٨٧) ، يقول الرسعني : «﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ ، وقُرئ شاذًّا : بضم الياء وكسر الصاد ، من أصده ، بمعنى : صدَّه ، وهي لغة كلب ، قال شاعرهم :

أُناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواقي عن أنوف الحوائم[1]

السواقي جمع ساقية ، دهن الولائد الساقيات أو الجماعات التي يسقون الإبل .

الحوائم[2] : العطاش ، من حَام ، إذ عطش»[3].

٥- اعتمد الرسعني في تفسيره على شعر فحول الشعراء ـ كما سبق ذكر وبيان أمثلته ـ ، وكان أحياناً يستشهد بشعر لا يُعرف قائله وهم الشعراء المجهولون[4] ، وربما اعتمد الرسعني في جواز الاستشهاد بشعر المجهول قائله ، استناداً لرأي بعض النحاة الذين يجيزون ذلك ، أو لعله نظر إلى زمن روايته ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ (النساء:١٥) ، قال الرسعني : «قوله تعالى ﴿ وَٱلَّـٰتِى

---

(١) البيت لذي الرمة ، وهو من البحر الطويل ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٢٠٨/٨ (صدد) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢٧٤/٧ .

(٢) حوائم : من حائم ، وهو العطشان ، انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ١٠٩٨ (حوم) .

(٣) رموز الكنوز ٥٨٤/٥ ، ٥٨٥ .

(٤) هناك من النحاة من يرى عدم جواز الاحتجاج بشعر لا يُعرف قائله ، وبعضهم أجاز ذلك ، انظر : تفصيل هذه المسألة في المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، النوع السادس ١٤١/١ وما بعدها .

﴿ يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ قال الزجاج : ﴿ وَٱلَّتِى ﴾ تجمع اللاتي ، واللواتي ، قال الشاعر :

من اللواتي والتي واللاتي زعمن أني كبرت لداتي»[1]

وفي قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:٤٢) ، قال الرسعني : «﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : ولو كانوا مع ذلك جُهالاً ، وهذا مثل قول الشاعر :

. . . . . أصمُّ عما ساءه سميعُ»[2]

٦- أما عن الطبقة الرابعة وهم المولّدون ويقال لهم المحدثون ، فقد ذكر الرسعني بعضاً من شعرهم ، واستشهد بشعر شعراء هذه الطبقة في مواضع معدودة قياساً إلى شعراء الطبقات الثلاث آنفة الذكر ، ويبدو أنه التزم بقول من يقول بعدم جواز الاستشهاد بشعر طبقة المحدثين ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾(الأنعام:١٥٤) ، يقول الرسعني : « إن قيل : على أي شيء عطف قوله ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا ﴾ ... ثم قال الرسعني : وقيل هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ (الأنعام:٨٤)، وقيل تقديره : ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب ، ومثله قول الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده»[3]

وفي قوله تعالى ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقْرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾(ص:٣٨)، يقول الرسعني : «قال الزجاج : الأصفاد : سلاسل الحديد ، وكل ما شددته شدًّا وثيقاً بالحديد

---

(١) رموز الكنوز ٤٤٨/١ ، والبيت لا يعرف قائله ، وهو من البحر الوافر .

(٢) المصدر السابق ٥٣/٣ ، والبيت لا يعرف قائله ، وهو من البحر الرجز .

(٣) المصدر السابق ٥١/٢ ، ٥٢ ، والبيت لأبي نواس ، وهو من البحر الخفيف .

وغيره فقد صفدته ، وكل من أعطيته عطاءً جزلاً فقد أصفدته ، أي : كأنك أعطيته ما يرتبط به ، ومنه قول المتنبي[1]

. . . . . ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا »[2]

٧- يستخدم الرسعني أحياناً الشعر كأداة من أدوات الترجيح في بعض المسائل التي بحثها في تفسيره ، كما الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ (النساء:١٢)، قال : « كثر أقوال الصحابة في تفسير الكلالة ، فاختيار أبي بكر الصديق ﷺ : أنها عبارة عمن سوى الوالد والولد ، وهو الصحيح ، وبه قال : علي ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ ثم قال الرسعني : والدليل على صحة قول أبي بكر وجوه : ثم عدد تلك الحجج ومنها قال : الحجة الرابعة : قول الفرزدق[3]

ورثتم قناة المجد لا عن كلالة عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

دلَّ هذا البيت على أنهم ما ورثوا الملك عن الكلالة ، ودلَّ على أنهم ورثوه عن آبائهم ، وهذا يوجب أن لا يكون الأب داخلاً في الكلالة »[4].

وفي قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان:٨) ، قال الرسعني : « قال ابن عباس ومقاتل وجمهور المفسرين :

---

(١) هو : أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكوفي ، المعروف بأبي الطيب المتنبي ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣هـ ، شاعر حكيم ، قال الشعر صبياً ، قتل سنة ٣٥٣هـ ، في طريق عودته للكوفة ، انظر : ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٠/١ برقم : ٥٠ .

(٢) رموز الكنوز ٤٩٨/٦ ، وصدر البيت : وقيدت نفسي في ذراك محبة ، وهو من البحر الطويل ، واستشهد الرسعني أيضاً بشعر أبي تمام ، انظر : رموز الكنوز ٢١٦/٨.

(٣) هو : همام بن غالب بن صعصعة التميمي ، أبو فراس المشهور بالفرزدق ، شاعر من أهل البصرة ، ولُقبّ بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه ، توفي في بادية البصرة سنة ١١٠هـ ، ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٦٢/١ .

(٤) رموز الكنوز ٤٤٣/١ ، والبيت من البحر الطويل ، وقد سبق هذا المثال في هذا المبحث ص ٣٣٤ .

الضمير للطعام ، أي : على حب الطعام ، وشهوتهم إياه وحاجتهم إليه ، كما قال تعالى ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران:٩٢) ، وقال الداراني : [١] على حب الله ، وقال الرسعني : ويجوز عندي : أن يعود الضمير إلى الإطعام المدلول عليه بقوله ﴿ وَيُطْعِمُونَ ﴾ على معنى : أنهم يطعمون الطعام ، وهم يحبون الإطعام ، ولا يتكرهون به ، ولا يحملون أنفسهم عليه ، بل يفرحون به ويستبشرون عند بذله ، وباعتبار هذا جعلوا بيت زهير[٢] أمدح بيت قالته العرب :

تراه إذا جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله »[٣]

ثم ذكر أبياتاً أخرى لغيره من الشعراء .

٨- وربما يستأنس الرسعني أحياناً بشعر مَن عاصره فيقول : وأنشدني بعض أهل العلم ، أو أشياخي ، أو صاحبنا ، كما في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم:١٥) ، قال الرسعني : « وقيل استفتحوا : استحكموا لله تعالى وسألوه القضاء بينهم ، وقد ذكرنا فيما مضى أن أهل عُمان يُسّمون القاضي فاتحاً أو فتّاحاً ، وأنشدني بعض الفضلاء من أهل العربية

خوفني اليمين فارتعت منها عند باب الفتاح أي ارتياع

---

(١) هو : أبو سليمان الداراني ، عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي ، من أهل دمشق ، زاهد روى عن سفيان الثوري ، توفي سنة ٢١٥هـ ، انظر : ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣١/٣ برقم : ٣٦٣ .

(٢) هو : زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني ، حكيم الشعراء في الجاهلية ، وأحد أصحاب المعلقات ، ومن شعراء الطبقة الأولى ، ولد بضواحي المدينة ، كان أبوه وخاله وأخته وولداه من الشعراء ، توفي سنة ١٣ قبل الهجرة ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٣٧/١ برقم : ٢ .

(٣) رموز الكنوز ٤٠٧/٨ ، والبيت من البحر الطويل ، انظر لسان العرب لابن منظور ٨٣/٥ (هلل) ، المعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ١٤٧/٦.

ثـم أرسـلتها كمـا انحـدر السـيل تهـادى مـن المكـان اليفـاع»[1]

وهناك أبيات أخرى من هذا النوع في مواضع من التفسير[2].

٩- قد يستشهد بشعره لتأييد معنى يراه ، كما جاء في رثاء ولده أحمد ، ففي تفسير قوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص:٥٥) ، قال الرسعني : «﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ تسليم متاركة وتوديع لا تسليم تحية ، ومثله قولي في أبيات أرثي بها ولدي أبا صالح أحمد :

علـى زينـة الـدنيا ولـذة عيشـها السـلام فهـذا منهـا آخـر العهـد»[3]

* * *

(١) رموز الكنوز ٥١٩/٣ بتصرف ، والبيتان من البحر الخفيف ، ومعنى اليفاع : ما ارتفع من الأرض أو التل ، انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ٧٧٧ (يفع).

(٢) انظر على سبيل المثال في رموز الكنوز ٣٠٣/١ ، ١١/٣ ، ٣٠١/٦ ، ٦٨/٨ .

(٣) انظر : رموز الكنوز ٥٥٣/٥ ، والبيت من البحر الطويل .

obeikandl.com

المبحث الرابع

النحو في تفسيره

تأتي أهمية معرفة التوجيه النحوي وتصريف الكلمات عند التصدي لتفسير القرآن الكريم ، لأنه نزل بلسان عربي مبين ، ومعرفة هذا العلم أمر ضروري وشرط أساسي للمفسر كما أوضحت ذلك كتب علوم القرآن[1] ، « ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى ؛ لأن الإعراب يُميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين ، وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره ، النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها ، ككونها مبتدأ أو خبراً أو فاعلاً أو مفعولاً ، أو في مبادئ الكلام أو في جواب ، إلى غير ذلك »[2] .

واهتمَّ النحاة بإعراب القرآن الكريم ، وصُنِّفت كتب عديدة[3] في هذا الباب ، ومما هو جدير بالإشارة هنا أن النحاة على اختلاف مذاهبهم النحوية وتعدد مدارسهم قد جعلوا أدلتهم وشواهدهم من القرآن الكريم فكثرت التخريجات ، وتعددت الأوجه الإعرابية في الآية أو الكلمة الواحدة أحياناً .

واعتنى الرسعني كثيراً في تفسيره بالناحية النحوية المتمثلة بالإعراب والصرف ، ومن خلال تتبع تفسيره لاحظت مدى عنايته بهذا العلم فلا تكاد تمرّ بضع صفحات إلا وفيها تصريف للكلمة أو إعرابها . . . إلخ ، ولعل

---

(١) انظر : الإتقان للسيوطي ٥٦٣/١ وما بعدها ، وهي ما يجب مراعاته من أمور في مسألة إعراب القرآن الكريم .

(٢) المصدر السابق ٥٦٣/١ .

(٣) من أشهر هذه الكتب ، كتاب إعراب القرآن للنحاس وللزجاج ، والتبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري ، وحديثاً كتاب إعراب القرآن لدرويش وغيرها .

تتلمذه على العالم اللغوي والنحوي أبي البقاء العكبري[1] كان له الأثر البارز في الجانب النحوي من شخصية الرسعني ، مما جعله على دراية واسعة في هذا العلم ، وذا قدم راسخة فيه ، وكذلك اطلاعه على أقوال وآراء أعلام النحاة كالفراهيدي وسيبويه والزجاج وغيرهم .

ينقسم علم النحو على نوعين : أحدهما عوامل الإعراب ، وهي أحكام الكلام المركب ، وما يتعلق بأواخر الكلمة من تغيير .

والآخر : التصريف ، وهي أحكام الكلمات من قِبل تركيبها ، وهو ما يسمى بالصرف ، ومن هنا سيقسم المبحث على قسمين :

أولاً : المسلك النحوي والإعرابي في تفسيره

اهتمَّ الرسعني بالتوجيه النحوي في تفسيره اهتماماً واسعاً ، ونراه يستعرض في تفسيره مذاهب النحويين وتوجيهاتهم ، وقد وظّف كل ذلك في خدمة النص القرآني ؛ ليكشف معناه ويوضحه ، أما منهج الرسعني في هذا الباب فيمكن تلخيصه في النقاط الآتية .

١- اعتنى الرسعني في تفسيره بإعراب القرآن ، لكنه لم يتطرق إلى كل آياته واكتفى بما يحتاج إليه من إيضاح المشكل والمختلف فيه[2]، أو ما يختلف المعنى باختلافه ، وما سوى ذلك مما لا يحتاج إليه إلا

---

(١) يذكر الرسعني أحياناً في تفسيره آراء شيخه العكبري فيقول : قال شيخنا أبو البقاء عبد الله بن حسين اللغوي ـ رحمه الله ـ كذا ، أو يسأله عن مسألة فيجيب عنها ، انظر : رموز الكنوز ٤٥٧/٢ .

(٢) وذلك مثل مسألة اللحن في القرآن الكريم وتحديداً في قوله تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (النساء:١٦٢)، فصّل فيها كثيراً ، ونقل أقوال العلماء في نصب المقيمين ، انظر : رموز الكنوز ٦٦٥/١ ، ٦٦٦ ، وكذلك قوله تعالى ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم:٢٢) في قراءة حمزة بكسر الياء حيث ذكر الرسعني أقوال النحاة وتوجيهاتهم ، انظر : رموز الكنوز ٥٢٩/٣ وما بعدها .

المبتدئ فقد أعرض عنه ، فذلك يطلب من مظانه ، ولاسيما أن كتابه في تفسير القرآن وليس كتاب إعراب .

٢- اهتمَّ الرسعني بالنقل عن أعلام النحاة وأئمتهم ، وكان ينسب القول لقائله ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ (النساء:٥٣) ، قال الرسعني : « ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ ، ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة ، والاستفهام بمعنى الإنكار ، والتقدير : بل ألهم نصيب من الملك ، أي : ليس لهم ذلك ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، قال الفراء[١] : هذا جواب لجزاء مضمر ، كأنك قلت : ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس إذاً نقيراً ، قال الزجاج : وتأويل « إذاً» إن كان الأمر كما جرى ، أو كما ذكرت ، يقول القائل : زيد يصير إليك ، فتقول إذاً أكرمه ، أي : إن كان الأمر على ما تصف : وقع إكرامه »[٢] .

وفي قوله تعالى ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ (النساء:٩٠)، يقول الرسعني : « فإن قيل ما إعراب ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه في محل الحال بإضمار (قد) ، والدليل عليه قراءة الحسن ، وبها قرأت على أبي البقاء اللغوي ، وأبي عمرو الياسري ليعقوب والمفضل عن عاصم (حِصرةً صدورهم) على الحال ، وهذا قول الأخفش .

الثاني : أنه صفة في موضع نصب ، تقديره : أو جاءوكم قوماً حصرت صدورهم ، قاله سيبويه .

---

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ٢٧٣/١ .

(٢) رموز الكنوز ٥٣٤/١ ، ٥٣٥ ، معاني القرآن للزجاج ٦٣/٢ ، وقال العكبري : « أم منقطعة ، أي بل ألهم ، و(فإذن) حرف ينصب الفعل إذا اعتمد عليه ، والنون أصل فيه ، ولم يعمل هنا من أجل حرف العطف وهي الفاء ، ويجوز في غير القرآن أن يعمل مع الفاء ، وليس المبطل لعمله (لا) ؛ لأن (لا) يتخطاها العامل» انظر : التبيان لأبي البقاء العكبري ٢٨١/١ بتصرف يسير .

الثالث : أنه دعاء عليهم ، لا موضع له من الإعراب ، تقديره : ضيّق الله صدورهم عن قتالكم ، قاله المبرد[1] .

وأسلوب الرسعني هذا يستخدمه كثيراً وهو السؤال الافتراضي بـ «فإن قيل ما إعراب» أو «ما جواب» وهو كثير ، ويبدو أنه أخذه عن الزمخشري ، ولعل هذا يغني عن المثال .

٣- كما أنه أحياناً لا ينسب الإعراب لأحد ولا يشير إلى أحد من علماء النحو.

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ (النساء:٩٢) ، يقول الرسعني : «وقوله ﴿ إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ حال ، أو صفة مصدر محذوف ، أو مفعول له ، على معنى : ما ينبغي أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده ، والمعنى : إلا على وجه الخطأ بأن يظنه كافراً ، أو يرمي كافراً فيصيبه»[2].

٤- يذكر الرسعني أحياناً المدارس النحوية كمدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ويبدو أنه يميل إلى رأي البصريين غالباً ، وهذا ما يلاحظ من خلال تتبع توجيهاته النحوية وإعرابه آيات القرآن الكريم ، وأحياناً يذكر آراء المدارس دون ميل أو ترجيح .

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ (الأعراف:١٠٢) ، قال الرسعني : «والقاعدة التي راعيناها في هذا الباب من هذا الكتاب ، ما عليه حُذّاق البصريين ، من أنّ (إنْ) هي المخففة من

---

(١) رموز الكنوز ١/٥٨٠ ، ٥٨١ ، وانظر : تفصيل هذه الأوجه في معاني القرآن للزجاج ٢/٨٩ ، كشف المشكلات للأصبهاني ١/٣١٨ ، ٣١٩ ، معاني القرآن للأخفش ١/٢٤٤ ، التبيان لأبي البقاء العكبري ١/٢٩٠ .

(٢) رموز الكنوز ١/٥٨٤ ، وانظر كذلك ٣/١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣/١٩٣ وغيرها ، وقال مكي ابن أبي طالب: ﴿ إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ استثناء منقطع ، انظر : مشكل إعراب القرآن ١/٢٠١.

الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينهما وبين النافية على معنى : وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين مارقين من الطاعة[1].

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (القصص:٨) ، قال الرسعني : «قوله تعالى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ، البصريون من النحويين يسمون هذه اللام وإن كانت على صورة لام كي : لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأن عاقبة الشيء المذكور انتهت إلى ما أخبر به وصارت إليه ، وإن لم يكن مما أثره الفاعل ولا أراده ، وأما الفراء وأصحابه الكوفيون فيذهبون إلى أنها لام كي ، تنزيلاً لحال الابتداء على معنى الانتهاء ، ونظيره : أن يسقي رجل رجلاً دواءً يشفيه من دائه فيتلف ، فيقال : سقاه دواء فقتله ، وسقاه ليقتله ، أي : كان بمنزلة من قصد إتلافه وإن كان كارهاً غير مختار له . . . »[2] .

٥- على الرغم من اعتماد الرسعني على أقوال كبار النحاة ـ كما سبق ـ إلا أنه أحياناً كان يردّ بعض تلك الأقوال ولا يرتضيها ، مما يدل على شخصيته العلمية المستقلة ، وسعة اطلاعه ، وقدمه الراسخة في هذا العلم .

ففي قوله تعالى ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ (النساء:٢٤) ، قال الرسعني : « ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، قال الزجاج : هو مصدر مؤكد ، أي كتب عليكم كتاباً ، وقال نحاة الكوفة : هو منصوب على الإغراء بـ ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وفيه ضعف ؛ لأن ما انتصب بالإغراء لا يتقدم على ما قام مقام الفعل »[3] .

---

(١) رموز الكنوز ٢/٢١٣ ، قال العكبري : « (وإن وجدنا) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي : وإنا وجدنا ، واللام في (لفاسقين) لازمة لها لتفصل بين (إن) المخففة وبين (إن) بمعنى ما ، وقال الكوفيون : (إن) الثقيلة بمعنى ما » انظر : التبيان لأبي البقاء العكبري ١/٤٣٥ .

(٢) رموز الكنوز ٥/٥١٢، ٥١٣ ، وقال العكبري : « اللام للصيرورة ، لا لام الغرض » انظر : التبيان للعكبري ٢/٢٨٧ .

(٣) رموز الكنوز ١/٤٧٤ ، معاني القرآن للزجاج ٢/٣٦ ، معاني القرآن للفراء ١/٢٦٠ ، وانظر : هذا الإعراب والترجيح أيضاً لشيخه العكبري في التبيان ١/٢٦٩ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ١/١٨٦ .

وفي قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران:٢٦) ، يقول الرسعني : « وكُسرت اللام من ﴿ قُلِ ﴾ لالتقاء الساكنين ﴿ ٱللَّهُمَّ ﴾ ، بمعنى : يا الله ، والضمة التي في الهاء ضمة المنادى المفرد ، والميم المشددة عوض من (يا) ، فلذلك لا يجتمعان ، وقوله (يا اللهم) شاذ ، وهذا قول الخليل وسيبويه ، وقال الفراء[1] : المعنى ، يا الله أُمَّ بخير ، فأُلغيت الهمزة ، وطرحت حركتها على ما قبلها ، ويلزم على قول الفراء جواز دخول (يا) عليها وليس بمختار في الكلام »[2].

٦- ومما يدلل على سعة علم الرسعني في هذا المضمار ؛ ترجيحه بين الآراء والأقوال التي يذكرها عن النحاة ، وإن كان أحياناً لا يُرجّح ويعرض الآراء دون تعقيب وكأنه يرتضيها جميعاً ، كما في الأمثلة الآتية التي توضح هذا .

ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾(آل عمران:١٥٣) ، يقول الرسعني : « قوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ ﴾،قيل: إنّ (لا) زائدة كقوله ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾(الحديد:٢٩) ، فالمعنى : فأثابكم غمًّا ، عقوبة لكم ، لكي تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة ، وما نالكم من القتل والهزيمة ، فعلى هذا اللام في (لكي) متعلقة بقوله : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ ، والأظهر : أن (لا) على أصلها ، ومعناها النفي »[3] .

وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٥،٩٦) ، قال الرسعني : « قيل : إن ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، والمعنى : والله خلقكم وعملكم ، وقيل : إن ﴿ مَا ﴾ موصولة ، على معنى : والله خلقكم والذي تعملونه وتنحتونه من الآلهة ، وهذا الوجه أظهر ؛ لوجهين ،

---

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ٢٠٣/١ .

(٢) رموز الكنوز ١٤٧/١ ، وهو ما قال به العكبري أيضاً ، انظر : التبيان ٢٠٣/١ .

(٣) رموز الكنوز ٣٣٥/١ ، ولم يرجح العكبري بين الأقوال ، انظر : التبيان ٢٣٩/١ ؛ مما يدلل على علمية الرسعني .

أحدهما : أن المراد من الآية الاحتجاج عليهم بفساد ما انتحلوه من عبادة مخلوقات الله تعالى مثلهم ، بدليل قوله تعالى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ، فلو قلنا بأنها مصدرية لم يصح هذا الاحتجاج ، **ثانياً** : أن (ما) في قوله ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ موصولة لا شك فيها ، فلا يعدل بأختها عنها »[1].

ويلاحظ من خلال هذا المثال كيف وظّف الرسعني الإعراب ، وأدوات النحو في خدمة بيان معنى النص القرآني ، وما يترتب عليه ، وخاصة في مجال العقيدة حيث قال : « وبهذه الآية احتجّ علماء الحق على إبطال مذهب القدرية والجبرية بناءً على أن (ما) مصدرية »[2] ، وإن كان الرسعني قد رجحّ أن (ما) موصولة ـ كما سبق ـ .

ومن الآراء التي ذكرها دون ترجيح كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ (الأعراف:٣٢)، يقول الرسعني : « وقال أبو علي : [3] مَن قرأ (خالصةٌ) بالرفع جعله خبراً للمبتدأ الذي هو ﴿ هِيَ ﴾ ، ويكون ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ تثبيتاً للخلوص ، واللام متعلقة بالخبر الذي هو « خالصة » ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، ويكون حينئذ في المجرور الذي هو خبر ذكره يعود إلى المبتدأ ، ومن نصب ﴿ خَالِصَةً ﴾ كان حالاً مما في قوله ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، لأن فيه ذكراً يعود إلى المبتدأ الذي هو ﴿ هِيَ ﴾ فـ ﴿ خَالِصَةً ﴾ حال عن ذلك الذكر ، والعامل في الحال ما في اللام من معنى الفعل ، واللام على هذا متعلقة بمحذوف ، وفيها الذكر الذي كان

---

(١) رموز الكنوز ٤٠٢/٦، ولم يرجح العكبري بين الأقوال ، انظر : التبيان ٣٤٩/٢، وقال مكي بن أبي طالب : « ما في موضع نصب بـ(خلق) وهي مع الفعل مصدر أي : والله خلقكم وعملكم ، وهذا أليق بها ، وقال المعتزلة : إن (ما) بمعنى الذي فراراً من أن يقروا بعموم الخلق لله ، ويجوز أن تكون (ما) استفهاماً في موضع نصب بـ (تعملون) على التحقير لعملهم والتصغير له » ، انظر : مشكل إعراب القرآن ٢٤٠/٢ .

(٢) رموز الكنوز ٤٠٢/٦ .

(٣) هو : أبو علي الفارسي صاحب كتاب الحجة ، وقد سبقت ترجمته ص ١٣٨.

يكون في المحذوف لو ذكر ، وليست متعلقة بالخلوص ، كما تعلقت في قول من رفع .

قال ابن الأنباري : ﴿ خَالِصَةً ﴾ نُصب على الحال من لام مضمرة ، تقديرها : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة ، وهي لهم في الآخرة خالصة ، فحذفت اللام لوضوح معناها . . »[1].

وفي قوله تعالى ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ (طه:١٦) ، يقول الرسعني : « فإن قيل : ما موضع ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ ، من الإعراب ، قلت فيه وجهان .

أحدهما : النصب على جواب النهي بالفاء ، كقوله عقيب هذا الموضع : ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ (طه:٦١) .

الثاني : الرفع على معنى ، فإذا أنت تردى ، ومثله ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ (غافر:٣٧) ، و(أطلع) بالنصب أيضاً ، وقوله عز وجل ﴿ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ (عبس:٤)[2] .

٧- كما تطرق الرسعني في تفسيره إلى بيان معاني بعض الحروف كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء:٧)، قال الرسعني : « قوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ ﴾ بمعصية الله ، ﴿ فَلَهَا ﴾ لا يحمله أحد عنها ، وقيل : (لها) بمعنى عليها »[3].

---

(١) رموز الكنوز ١١٠/٢ ، ١١١ ، وانظر : التبيان للعكبري ٤٢١/١ حيث توسع في ذكر أوجه إعراب (خالصة) ، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٣١٢/١ .

(٢) رموز الكنوز ٤٩٥/٤ ، وانظر : التبيان للعكبري ١٨١/٢ حيث يتضح توسع الرسعني في إيراد الأمثلة من القرآن .

(٣) رموز الكنوز ١٢٧/٤، ١٢٨ ، ورجّح العكبري معنى (لها) على عليها ؛ لأن اللام للاختصاص ، التبيان ١٢٢/٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ (طه:٧١)، قال الرسعني : « قال الأكثرون : (في) بمعنى : (على) »[١].

وأشار إلى كلمات أخرى مثل : (على)[٢] بمعنى (مع) ، و (أو)[٣] بمعنى (بل) ومعنى (و) وأكتفي هنا بما سبق من الأمثلة .

٨- أما توجيهاته للقراءات من حيث الإعراب فهو دليل على ما يتمتع به الرسعني من اطلاع واسع في هذا العلم ، ـ سبق ذكر هذا في مبحث القراءات ـ فضلاً عن علم النحو واللغة ، وقد أدرك الرسعني أن جمال صورة القراءات تكتمل بمثل هذا التوجيه النحوي لها ، ويمكن هنا الاكتفاء بالمثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج:٢٣)، يقول الرسعني : « قرأ نافع وعاصم : ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقون بالجر ، فمن نصب حمله على موضع الجار والمجرور ، كما أجازوا : مررت بزيد وعمراً ، ويجوز أن يكون النصب على معنى : ويؤتون لؤلؤاً ، لأن اللؤلؤ حلية ، بدليل قوله ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل:١٤) ، ومن جرَّ عطفه على الذهب ، على معنى : يُحلون فيها من أساور من ذهب ومن لؤلؤ ، أي : منهما ، كأن أساور الذهب رُصِّعت باللؤلؤ أو فُصِّلت به[٤].

٩- وللرسعني آراؤه الخاصة في الإعراب وتوجيهاته التي تبدو للقارئ على هذا النحو ، ولم ينسبها لأحد كما في معظم الأحيان ، وكما في الأمثلة الآتية :

---

(١) رموز الكنوز ٥٣٩/٤ ، قال العكبري : « (في) هنا على بابها ؛ لأن الجذع مكان للمصلوب ومحتو عليه ، وقيل : هي بمعنى على» انظر التبيان ١٨٨/٢ ، ويتضح أن الرسعني يخالف أحياناً رأي شيخه العكبري .

(٢) رموز الكنوز ٥٥٧/٣ .

(٣) المصدر السابق ٤٣١/٦ ، ٤٣٢ .

(٤) المصدر السابق ٣٣/٥ ، وخالف الرسعني رأي العكبري في توجيه العطف على الذهب ، انظر التبيان ٢٢١/٢ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ (الأعراف:١٦٣) ، يقول الرسعني : « ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ ، بدل من ﴿ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ ، والمراد أهلها ، كأنه قيل : واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم ، وهو من بدل الاشتمال ، فعلى هذا محله من الإعراب الجر ، ويجوز أن يكون محله من الإعراب : النصب بـ ﴿ كَانَتْ ﴾ ، أو بـ ﴿ حَاضِرَةَ ﴾[1] ».

وفي قوله تعالى ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾(الإسراء:٢٠)، قال الرسعني : « ﴿ كُلًّا ﴾ منصوب بـ ﴿ نُّمِدُّ ﴾ ، والتنوين عوض عن المضاف إليه ، و﴿ وَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ بدل من ﴿ كُلًّا ﴾ والتقدير : كل واحد من الفريقين البرّ والفاجر نمده ونرزقه من عطائنا »[2] .

وبعد هذه اللمحات عن مسلك الرسعني في النحو في تفسيره بقيَ أن أُشير إلى أنه كان أحياناً يستطرد في الإعراب ، وربما يعقد فصلاً خاصًّا لمسائل النحو والإعراب[3] ، وأخيراً يمكن القول بأن في التفسير ثروة لا يستهان بها من مسائل النحو والإعراب التي تُعدّ مصدراً هامًّا يضاف إلى بقية المصادر في هذا الباب[4].

---

(١) رموز الكنوز ٢٨٧/٢ ، ٢٨٨ ، وقال مكي بن أبي طالب : « العامل في ﴿ إِذْ ﴾ سل ، والتقدير سلهم عن وقت عدْوهم في السبت»، انظر : مشكل إعراب القرآن ٣٣٢/١.

(٢) رموز الكنوز ١٤٣/٤ ، وانظر : التبيان للعكبري ١٢٤/٢، وقال مكي بن أبي طالب : ﴿ كُلًّا ﴾ منصوب بـ ﴿ نُّمِدُّ ﴾ ، ﴿ وَهَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ بدل من ﴿ كُلًّا ﴾ على معنى المؤمن والكافر يرزق من عطاء ربك» انظر : مشكل إعراب القرآن : ٢٧/٢ .

(٣) انظر : رموز الكنوز وعلى سبيل المثال ٤٠٨/١ ، ٤٠٩ ، ٥٢٦/٤ وما بعدها ، ١٢٦/٣ ، ٣٥٠/٦ وغيرها .

(٤) من القضايا التي أشار إليها الرسعني في تفسيره مسألة : الزيادة والحذف وهذه المسألة ستأتي ربما في مبحث البلاغة ، وكذلك مسألة تضمين الحروف كما في قوله تعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (الإنسان:٦)، قال الرسعني : وقيل الباء زائدة ، وقيل المعنى : يشرب منها ، انظر : رموز الكنوز ٤٠٥/٨ .

ثانياً : الاتجاه الصرفي في تفسيره

يعدّ الصرف أحد فروع علم النحو ، ويتداخل معه وربما لا ينفك عنه في كثير من الأحيان ، ولا ريب أن الإمام الرسعني - رحمه الله - قد أدرك هذا المعنى ، مما جعله يولي هذا العلم الاهتمام الواسع في تفسيره ؛ خدمة للنص القرآني وتفسيره على أتمّ حال .

فما يهمنا هنا معرفة منهجه أو مسلكه في توظيف المادة الصرفية لتجلية المعنى المطلوب في الكلمة أو الآية القرآنية ، وهذا ما سيتبيّن من خلال هذه النماذج التي استخدم فيها الرسعني علم الصرف لتفسير النص القرآني وخدمته من هذا الجانب ، كما في النقاط الآتية :

١- عناية الرسعني باشتقاق الكلمات ، وبيان أصولها ، وسبب تسميتها وهذا الأمر أحياناً يخدم الجانب التفسيري ، وأحياناً لا يخدمه ولا يأتي بجديد .

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (آل عمران:١٤٤) ، قال الرسعني : « هذا اسم أكرم الله به رسوله ، واشتقاقه من الحمد ، سُمِيَّ بذلك لأنه محمود عند الله ، وعند الملائكة ، وعند الناس وفي ذلك يقول حسان بن ثابت[١]

وشقّ له من اسمه ليُجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد »[٢]

وفي قوله تعالى ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾ (آل عمران:١٢٧) ، يقول الرسعني : « ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ، « قال الخليل بن أحمد : الكبت في اللغة : الصرع في الوجه ، . . . وقال ابن قتيبة : أهل النظر يرون أن التاء فيه منقلبة عن الدال ، وكان الأصل فيه (يكبدهم) ، أي : يصيبهم في

---

(١) هو : حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري ، أبو الوليد ، شاعر النبي ﷺ ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، فعاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام ، توفي سنة ٥٤هـ ، انظر : ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٦/١ برقم : ٣١ .

(٢) رموز الكنوز ٣٢٢/١ ، ٣٢٣ ، والبيت من البحر الطويل ، انظر : خزانة الأدب للبغدادي ٢٢٣/١، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢٧١/٢.

أكبادهم بالحزن والغيظ ، وشدة العداوة ، والدال والتاء متقاربتا المخرج ، والعرب تدغم إحداهما في الأخرى ، وتبدل إحداهما من الأخرى ، كقولهم هَرَت الثوب وهَردهُ ، إذا خرّقه ، وكبت العدو وكبَده»[1] .

٢- أشار إلى الممنوعات من الصرف وسبب المنع أو عدمه ، وبيان علته ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء:٣) ، يقول الرسعني : «﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ، حال من ﴿ طَابَ ﴾ أو بدل من ﴿ طَابَ ﴾، ومنعهن الصرف : العدل والوصف أو العدل عن صيغها ، والعدل عن تكريرها ، التقدير : اثنتين اثنتين ، وثلاثاً وثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، كما قال في وصف الملائكة : ﴿ أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (فاطر:١) ، ولم يرد بشيء من ذاك العطف ، إذ العدول إلى ذلك عن لفظ التسعة عِيٌّ تأباه فصاحة القرآن وبلاغته»[2].

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾(الأعراف:٧٣)، قال الرسعني : «وثمود ها هنا القبيلة ، ولذلك لم يصرفه ؛ لأنه اجتمع فيه سببان ، وهما : التعريف والتأنيث»[3].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠) ، قال الرسعني : «قال بعض أهل اللغة : هو مشتق من لِطتُ الحوض ، إذا ملّسته بالطين ، وذكرنا في آل عمران أيضاً : أن نوحاً سُميّ بذلك ، لِنَوحه ، والظاهر أنهما اسمان أعجميان ولزمهما الصرف مع العجمة والتعريف لخفتهما[4].

٣- استخدم المادة الصرفية أحياناً كأداة من أدوات الترجيح ، وذلك بردِّ أحد المعاني التي أشار إليها المفسرون ، كما في المثال الآتي :

---

(١) رموز الكنوز ٢٩٤/١ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٤١٦/١ .
(٣) المصدر السابق ١٧٦/٢ .
(٤) المصدر السابق ١٨٧/٢ بتصرف .

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (مريم:٥٦) ، قال الرسعني : «وكثير من المفسرين يقولون : سُميَّ إدريس ، لِدَرسِه الكتب ، وليس بصحيح ؛ لأنه لو كان ذلك لكان إفعيلاً من الدرس ، ولو كان كذلك لكان منصرفاً ؛ لأنه ليس فيه مما يمنع الصرف سوى سبب واحد ، وهو العلمية»[١].

٤- اهتمَّ الرسعني بتوجيه القراءات صرفيًّا ـ كما سبق بيانه في مبحث القراءات ـ وبيّن ما يترتب على ذلك من معنى في توجيه الآية ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (النمل:٦٦) ، يقول الرسعني : «﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «أدرْك» على وزن أفعل ، ورُوي عن عاصم «بل ادّرك» بوصل الألف وتشديد الدال وفتحها على وزن افتعل من أدرك ، وقرأ الباقون : بوصل الألف أيضاً ، وألف قبل الراء والتشديد ، فمن قرأ (أدْرك) كان المعنى : بل علمهم واجتمع يوم القيامة حين عاينوا ما كانوا يشكون فيه من أمر الآخرة .

ومن قرأ : (بل ادّارك) فأصلها : تدارك ، فأدغموا التاء في الدال ، على معنى : تلاحق علمهم في الآخرة وتكامل[٢].

٥- كما تطرق الرسعني في تفسيره إلى جملة مباحث في الصرف كالإعلال[٣] والإبدال[٤] وغيرها من المسائل الصرفية ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) رموز الكنوز ٤/٤٣١ ، وانظر كذلك على سبيل المثال ٥/٤٥٣ (مكُث) .

(٢) المصدر السابق ٥/٤٨٨ ، ٤٨٩ .

(٣) **الإعلال** : تغيير حرف العلة بقلبه أو إسكانه ، أو حذفه تخفيفاً ، انظر : منجد الطالبين في الإبدال والإعلال ، أحمد ابراهيم عمارة ٢٢ (الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ط٤ ، ١٤٠٨هـ)

(٤) **الإبدال** : جعل حرف مكان حرف آخر ، انظر : المصدر السابق ٥ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ (هود:٧٧) ، قال الرسعني : « ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ أصله سوئ ، فعل من السوء ، إلا أن الواو أُسكنت ونُقلت كسرتها إلى السين فقُلبت ياء ، والمعنى ساءه مجيئهم خوفاً عليهم من قومه ، وأن يعجز عن المدافعة عنهم »[١].

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (يوسف:٤٥) ، قال الرسعني : « ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أصلها (إذ تذكر) ، فأبدلوا من التاء دالاً وأدغموا فيها الذال ، والمعنى : قال وقد تذكر شأن يوسف وما وصّاه به »[٢].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ (النور:٣٧) ، قال الرسعني : « ﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فإن قيل لِمَ حذفوا التاء من إقام الصلاة ، فإن أصلها : إقامة الصلاة؟ قلت : لأنها عِوض من العين الساقطة للإعلال ، وأصلها إقوام ، فلما أضيفت جعلوا الإضافة مقام حرف العوض فأُسقطت ، ومثله :

إن الخليط أجدُّوا البين وانجردوا ... وأخلفوك عد الأمر الذي وعدوا

أي عدة الأمر »[٣].

٦- أشار في تفسيره إلى الكلمات التي ترد على وزن تفعّل ، بما يفيد معنى الأضداد ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء:٧٩) ، قال الرسعني : « قال مجاهد : التهجد القيام بعد النوم ، وقال الأزهري : قيل له متهجد ، لإلقائه الهجود عن نفسه ، كما يقال

---

(١) رموز الكنوز ١٩٩/٣ .
(٢) المصدر السابق ٣٥١/٣ .
(٣) المصدر السابق ٢٦١/٥ ، والبيت للفضل بن العباس بن عتبة اللهبي ، وهو من البحر البسيط ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٦٨/١١ (غلب) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢٥٩/٢ .

تحرّج وتأثّم ، وقال ابن الأنباري : التهجد ها هنا بمعنى : التيقظ والسهر ، واللغويون يقولون : هو من حروف الأضداد ، يقال للنائم هاجد ومتهجد ، قال النابغة[1]

لـو أنهـا عَرَضَـت لأشـمَطَ راهـب عبَـدَ الإلـهَ صَـرُورةٍ مُتهجِّـد
لَرَنَـا لِبَهجَتِهـا وحُسـنِ حـديثها ولخالَـهُ رُشـداً وإن لـم يَرشُـد»[2]

وفي قوله تعالى ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة:٦٥) ، قال : «ومعنى تفكّهون : تعجبون مما نزل بكم في زرعكم ، وقيل : تندمون على عملكم فيه وإنفاقكم عليه ، والقولان مشهوران في التفسير ، ويقال : إنه من الأضداد ، تفكّه بمعنى : تنعّم ، وتفكّه بمعنى : تحزّن»[3].

٧- مما سبق يتضح أن الرسعني كان ينقل عن أئمة اللغة وينسب لهم الأقوال في معظم المواضع ، وأحياناً لا ينسب القول لأحد ، كما لا يخفى استطراداته أحياناً في توجيه المادة الصرفية[4] ، وكل ذلك لإيضاح المعنى وتجليته خدمة للنص القرآني ، وتفسيره على أتمّ وأحسن وجه قدر المستطاع .

* * *

---

(١) هو : زياد بن معاوية بن خباب الذبياني الغطفاني ، يكنى بأبي أُمامة ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، توفي سنة ١٨ قبل الهجرة ، ترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٥٦ برقم : ٤ .

(٢) رموز الكنوز ٤/٢١٥ ، ٢١٦ ، والبيت من البحر الكامل ، وقيل متعبد بدل متهجد ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٨/٢٢٦ (صرر) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢/٣٦٠، وقيل : الهجود النوم ، كالتهجد ، تهجّد : استيقظ كهجد ، ضد ، وهجده تهجيداً : أيقظه ونوّمه ، ضد ، انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ٣٢٨ (هجد) .

(٣) رموز الكنوز ٧/٦١٢ ، قيل تفكّه : تندم وبه تمتع ، تلذّذ وأكل الفاكهة ، وتجنّب عن الفاكهة ، ضد ، (فكه)، وفي الآية تهكم أو تفكه بمعنى ألقى الفاكهة عن نفسه . انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ١٢٥٠

(٤) انظر على سبيل المثال في رموز الكنوز ٣/٢٧١ ، ٢٧٢ .

obeikandl.com

المبحث الخامس

البلاغة والإعجاز في تفسيره

« إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب ، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم»[1] ، وكيف لا يكون كذلك والله تعالى قال عن القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) ، قال الرسعني : « ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بفرائد الفوائد ، كما تُفصّل القلائد بالفرائد ، ما بين حرام وحلال ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب وغير ذلك»[2].

وفي قوله تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤) ، يقول الرسعني : « قال بعض العلماء : لما أراد الله تعديد نعمه على خلقه في هذه السورة بدأ بنعمة الدين ؛ لكونها أجل المِنن وأعظمها ، وتعليم القرآن أعلى مراتبها وأقصى مراقيها ، لأنه الصراط المستقيم المفضي إلى الجنة والسعادة الأبدية ، وثنّى بخلق الإنسان؟ تنبيهاً له أنه خُلق للدين والعلم بالقرآن ، وثلّث بنعمة تعليم البيان ، وهو النطق الذي تميز به عن سائر الحيوان ، والذي هو وسيلة إلى العلم بالقرآن والتمييز بين الخير والشر»[3]، غير أن البيان الذي يُقصد في هذا المبحث بيان خاص ، وليس مجرد النطق[4].

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي ٢٢٥ .
(٢) رموز الكنوز ١١٧/٣ .
(٣) المصدر السابق ٥٤٥/٧ .
(٤) ابن جُزَي ومنهجه في التفسير للزبيري ٦٦٥/٢ .

وهذا العلم من أهم أركان علم المفسر ، فإنه لابدَّ من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم ، وأن يؤاخي بين الموارد ويعتمد ما سِيق له الكلام حتى لا يتنافر[1].

إن تفسير الرسعني مليء بالإشارة إلى بلاغة القرآن الكريم وبديع أسلوبه الذي يأسر القلوب ، ويُحرّك المشاعر ، ويأخذ أُولي الفصاحة والبيان إلى بحر البلاغة ، وبديع البيان .

أما سبب اهتمام الرسعني بهذا العلم فيمكن تعليله بأمرين :

أحدهما : خلفية الرسعني وثقافته اللغوية الواسعة ، وتلقيه علم اللغة والنحو على يد كبار العلماء الذين غرسوا في ذهنه محبة هذا العلم ، وغالباً يتأثر التلميذ بأستاذه .

الآخر : اعتماده في تفسيره على الكشاف ـ وخاصة في اللغة والنحو والبيان[2] ـ ، وغيره من كتب اللغة والنحو والتفسير ، والكشاف يُعدّ رائداً في مجال اللغة والبلاغة ، فلا غرابة أن يعتني الرسعني بهذا العلم في تفسيره ، كما لا يخفى ذوق المفسرّ في اللغة وتشربها في وجدانه تجعله يتذوق هذه المعاني ويحسّ بها ، كتلذذ الظمآن بالماء .

أولاً : البلاغة

يقول الرسعني في تعريفه للبلاغة : قال الزجاج : يقال : بلغ الرجل يبلغ بلاغة فهو بليغ ، إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كُنْه ما في قلبه .

وقيل في البلاغة : إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، وقيل : حسن العبارة مع صحة المعنى[3].

---

(١) البرهان للزركشي ٣١١/١ .

(٢) تنبيهاً لما فيه من الاعتزاليات ، وهكذا فعل الرسعني حيث ردَّ على الزمخشري في مسائل العقيدة ، وسيأتي بحث هذا لاحقاً في مناقشات الرسعني مع الزمخشري .

(٣) رموز الكنوز ٥٤٨/١ ، وذكر أقوالاً أخرى في تعريف البلاغة ، انظر : ٥٤٩/١ ، ٥٠٨/٢ .

ويُعرّف علماء البلاغة : البلاغة بأنها مطابقته ـ أي المتكلم ـ لمقتضى الحال مع فصاحته[1]، والذي يهمنا بعد هذا التمهيد الوقوف عند منهج الرسعني في عنايته واهتمامه بهذا العلم ، واستعانته به للوصول إلى تجلية المعنى وإيضاحه خدمة للنص القرآني كما ينبغي ويجب .

يُقسِّم البلاغيون علم البلاغة على ثلاثة أقسام : علم المعاني[2] ، والبيان[3] ، والبديع[4] ، ومن خلال تتبعي في تفسير الرسعني وجدته يُولي اهتماماً بعلم البيان أكثر من غيره ، وقد مضى في أول مبحث التفسير بالرأي طرف من الحديث عن التقديم والتأخير . . . إلخ ، ولا ضير أن نضرب بعض الأمثلة هنا في هذا المجال .

النوع الأول : علم المعاني

اهتمَّ الرسعني بالنكت البلاغية في تفسيره ، وبعض هذه النكت يتصل بعلم المعاني ، وإن لم يشر إليه صراحة في التفسير ، كما في الأمثلة الآتية :

١- التقديم والتأخير

ففي قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٩) ، قال الرسعني : « وقُدِّمت الجبال على الطير ؛ لأن تسبيحها أعجب وأدلُّ على القدرة »[5].

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القروينى ١٦ (تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٣٠هـ ، ٢٠٠٩م) .

(٢) هو : علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال . انظر الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢٣ .

(٣) هو : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . انظر : المصدر السابق ٢٠٧ .

(٤) هو : علم يعرف به وجوه تحسين الكلام ، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ، ثم قال : وهذه الوجوه ضربان : ضرب يرجع إلى المعنى ، وضرب يرجع إلى اللفظ . انظر : المصدر السابق ٣٣٣ .

(٥) رموز الكنوز ٦٤٦/٤، وهذه العبارة في الكشاف للزمخشري ، ويبدو أن الرسعني أخذها باختصار حيث قال الزمخشري : « فإن قلت لِمَ قُدّمت الجبال على الطير ، قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق » . انظر : الكشاف ٥٨٠/٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور:٢) ، قال الرسعني : « فإن قيل : لِمَ قدّم الزانية على الزاني ، والمذكر أبداً يُقدّم ، وباعتبار ذلك قدّم السارق على السارقة[1]؟ قلت : العرب أبداً تُراعي الأهم فتبدأ به ، وذكر الزانية أهم من الزاني ؛ لأن عارها بالزنا أكثر ، وحرصها عليه أشد ، وقبحه في حقها أغلظ ، وقدرتها عليه أتمّ ، وباعتبار ذلك قدّم السارق ، لأن العار والقبح في حقه أشد ، وحرصه على السرقة أكثر ، وقدرته عليها أتمّ »[2] .

٢- الحذف

كحذف جواب الشرط ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) ، قال الرسعني : « والمعنى ، ولولا كراهة أن تطأوا رجالاً ونساءً من المؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم لا تعرفونهم فتصيبكم منهم معرّة غير عالمين بهم ، لما كففنا أيديكم عن أهل مكة ، فحذف الجواب لدلالة الكلام عليه ، وقيل : الجواب لعذبنا »[3].

وحذف جواب القسم ، كما في قوله تعالى ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ (ص:١)، قال الرسعني :« قال جماعة من أهل المعاني : جواب القسم محذوف ، بتقدير : والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقول الكفار ، ودلّ على هذا المحذوف قوله

---

(١) وهو قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة:٣٨) .

(٢) رموز الكنوز ١٧٩/٥ ، ولم يتطرق الرسعني إلى الآية التي بعدها مباشرة وهي قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ (النور:٣) ، فقدّم الزاني ؛ لأن الحديث عن النكاح ، وهو يُطلب من الرجال فقدّمهم ، وربما لم يشر إليها الرسعني لوضوحها ، والله أعلم .

(٣) رموز الكنوز ٣١٣/٧، وانظر :الكشاف للزمخشري فقد ذكر هذا التوجيه ٥٤٨/٣.

تعالى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (ص:٢) [١] ، ثم ذكر أقوالاً أخرى عن حذف جواب القسم اكتفيت بأحدها .

النوع الثاني : علم البيان

١- المجاز والقول بوقوعه في القرآن[٢]

يُعرّف المجاز بأنه الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصحّ مع قرينة عدم إرادته[٣]، والذي يعنينا في هذا

---

(١) رموز الكنوز ٤٤٧/٦ ، وانظر كذلك ٣٧٢/٧ ، و ٦١١/٨ ، ومن علم المعاني الإيجاز والإطناب ، وقد أشار الرسعني في أحد المواضع الى التكرار الذي يُعدّ أحد أقسام الإطناب ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) قال ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ كالتكرير لقوله ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ ﴾ ؛ لأنهما يرجعان إلى معنى واحد . انظر : رموز الكنوز ٣١٣/٧ ، والكشاف للزمخشري ٥٤٨/٣.

(٢) مسألة القول بجواز وقوع المجاز في القرآن مسألة خلافية ، فالجمهور على ثبوت ووقوع المجاز في القرآن وفي اللغة العربية بشروط هي :

أولاً : أن يكون مستعملاً في غير ما وضع له .

ثانياً : أن يكون هناك علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

ثالثاً : أن توجد قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي .

وممن أنكر وقوعه الظاهرية ، وأبو الحسن الخرزي البغدادي ، وابن خويز منداد من المالكية ، وابن تيمية من الحنابلة وغيرهم ، وحجة المانعين : أن المعنى يعيّنه السياق ، وأن الكلمة بسياقها لا يمكن أن يراد بها إلا ما سيقت له وهذا هو الحقيقة .

ومن المعاصرين من يرى أن المجاز في اللغة واقع ، وفي القرآن ممنوع ، كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، وله رسالة في هذا تسمى (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) ، وعلى العموم فهي مسألة محل بحثها في عموم كتب أصول الفقه ، قديماً وحديثاً ، فضلاً عن مسألة تقديم الحقيقة على المجاز والعكس ، انظر : مذكرة في أصول الفقه ، محمد الأمين الشنقيطي ص٥٧ ، دار الحديث ، ط٤ ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م) ، ودروس في البلاغة للشيخ محمد بن صالح العثيمين ١٠٧ (مكتبة الهدي المحمدي ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ، ٢٠٠٥م) .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ٢٦٣ ، وقد عدّ القزويني التشبيه والاستعارة والكناية من المجاز .

المبحث منهج الرسعني في إثباته أو نفيه للمجاز ، واستخدامه لهذا العلم في بيان معاني القرآن وبلاغته .

ومن خلال التتبع في تفسير الرسعني تبيّن أنه يميل إلى القول بجواز وقوع المجاز في القرآن بدليل ذكره وترجيحه للمجاز أحياناً ، وإشاراته الكثيرة إلى أنواع المجاز التي سيأتي بيانها .

من ترجيحاته بوقوع المجاز ، فقد رجح المجاز على الحقيقة وقدمه في تفسيره ، كما في قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (يوسف:٨٢) ، قال الرسعني : «أي ، قولوا لأبيكم إن شك في قولكم : اسأل أهل مصر ، فإن هذه القصة اشتهرت فيهم ، وانتشرت بينهم ، واسأل العير التي أقبلنا فيها ، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام ، وقال ابن الأنباري : يجوز أن يكون المعنى : واسأل القرية والعير ، فإنها تعقل عنك لأنك نبيّ ، والأنبياء تخاطبهم الأحجار والبهائم ، والأول أصح»[1] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ (الكهف:٧٧)، قال : «ونسبة الإرادة إلى الجدار مجاز واستعارة للمداناة والمشارفة ، قال الشاعر :

يريد الرمح صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عُقيل[2]

وهذا الضرب من المجاز كثير الاستعمال»[3].

ومن المواضع التي يمكن أن يقال فيها أن الرسعني قدّم الحقيقة على المجاز ، ما نقله عن الزجاج ولم يُعلق عليه بشيء ، فكأنه ارتضى هذا القول ، ففي قوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ

---

(١) رموز الكنوز ٣٩٤/٣ .

(٢) البيت لا يُعرف قائله ، ونسبه الزمخشري للراعي ولم أجده في ديوانه ، والبيت من البحر الوافر . انظر : لسان العرب لابن منظور ٢٦٠/٦ (رود) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٥٨٥/٦ ، والكشاف للزمخشري ٤٩٤/٢ .

(٣) رموز الكنوز ٣٣٥/٤ بتصرف ، وهذا التوجيه ذكره الزمخشري ، ويبدو أن الرسعني أخذه نصًّا مع تصرف يسير . انظر : الكشاف ٤٩٤/٢ .

﴿ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (ق:٣٠) ، قال « فأما قولها هذا ومخاطبتها ، فالله تعالى جعل فيها ما به تميّز وتخاطب ، كما جعل فيما خلق أن يسبح بحمده . . . »[١].

ومن ذكره لاحتمال الحقيقة والمجاز بدون أن يرجّح أحدهما ، ما ذكره في قوله تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ (الدخان:٢٩) ، قال الرسعني : « اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال : **أحدها** أنه على حقيقته وظاهره ... **والثاني** : على حذف المضاف ، وتقديره : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض ، **والثالث** : أنه على مذهب العرب ، فإنهم يقولون إذا مات رجل خطير ، بكت عليه السماء والأرض ، وأظلمت له الشمس . . . وقال بعض أهل المعاني :[٢] وذلك منهم على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء ، وتنبيهاً على تعظيم مهلك الرجل الخطير ، وعلى هذا المعنى حملوا الأخبار والآثار الواردة في ذلك والله أعلم »[٣] .

٢- التشبيه[٤]

تكلم الرسعني عن التشبيه بنوع من الإيجاز ، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ (يونس:٢٤) ، قال الرسعني : « إن الله سبحانه وتعالى شبّه حال الدنيا في سرعة تقضّيها وزوال نضارتها بالنبات في تفرقه وجفافه ، بعد تكاثفه والتفافه ... »[٥].

---

(١) رموز الكنوز ٣٩٢/٧ .

(٢) هو الزمخشري .

(٣) رموز الكنوز ١٧٣/٧ ، والتوجيه الثالث ذكره الزمخشري ، انظر الكشاف ٥٠٤/٣.

(٤) التشبيه : هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى ، والمراد بالتشبيه ههنا ، أي علم البيان ما لم يكن على وجه الاستعارة الحقيقية ، ولا الاستعارة بالكناية ، ولا التجريد . انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ٢٠٩ .

(٥) رموز الكنوز ٣١/٣ .

وفي قوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ (الرعد:١٧) ، قال : « وهذا مثل ضربه الله تعالى أيضاً للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، فمثلُ الحق هو القرآن وغيره من أسباب الهدى بالماء النازل من السماء ، ومثّل قلوب الناس بالأودية ، فكل قلب يحمل بقدر ما فيه من اليقين والعقل ، والشك والجهل »[١].

٣- الكناية[٢]

وتطرق الرسعني في تفسيره إلى هذا النوع من علم البيان ورجّحه أحياناً ، وربما يشير إليه دون تعقيب كأنه يرتضيه ، أو يذكره بصيغة التمريض « قيل » ، كما في النماذج الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ (النساء:٢٣)، قال :« فإن قلت : ما معنى : دخلتم بهنّ؟ قلت : هي كناية عن الجماع كقولهم : بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب ، يعني : أدخلتموهن الستر »[٣] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء:١٠٣)، قال : « أي ، فرغتم من صلاة الخوف ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بألسنتكم وقلوبكم ، وفي جميع أحوالكم ، وقيل : الأمر بالذكر كناية عن الصلاة ، أي : صلوا أيها الأصحاء ، ﴿ قِيَٰمًا ﴾ وصلوا أيها المرضى والجرحى العاجزون عن القيام ﴿ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ إن لم تستطيعوا القعود »[٤].

---

(١) رموز الكنوز ٤٦٨/٣ ، وانظر : الكشاف للزمخشري ففيه كلام مشابه ٣٥٦/٢ .

(٢) **هي** : لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ ، كقولك فلان طويل النجاد ، أي : طويل القامة . انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ٣١٣ .

(٣) رموز الكنوز ٤٧٠/١ ، وهذا الكلام للزمخشري نصّاً ولم يشر إليه الرسعني . انظر : الكشاف ٥١٧/١ .

(٤) رموز الكنوز ٦٠٩/١ ، ٦١٠ .

وأشار أحياناً للكناية بصيغة المرجوح، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ (آل عمران:٧٧)، قال: «لهوانهم عليه، أو هو كناية عن غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال:٦١)، قال: «والمعنى، إن مالوا إلى الصلح ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ كناية عن السلم، وهي تُؤنّث وتُذكّر، وقيل: كناية عن الفعلة»[٢].

٤- الاستعارة[٣]

وتناول الرسعني أسلوب الاستعارة وتطرق إليه كثيراً، فرجّح الاستعارة أحياناً، وذكرها بأسلوب التمريض أو الرأي المرجوح أحياناً أخرى، كما في الأمثلة الآتية:

فمما رجّحه من أسلوب الاستعارة قوله تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ (الإسراء:١٣)، قال: «وفي ذكر العُنق إشعار بعدم الانفكاك، ومنه المثل: تقلّدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في رقاب العباد، واستعير العنق لإلزام الخير والشر؛ لأنه محل الطوق الزاين، والغِل الشاين»[٤].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم:٤)، قال: «﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ استعارة بليغة في انتشار الشيب وبياضه، حيث شبّهه بشعاع النار وانتشارها»[٥].

---

(١) رموز الكنوز ٢٢٢/١، وقريب من هذا المعنى أشار إليه الزمخشري. انظر: الكشاف: ٤٣٩/١.

(٢) رموز الكنوز ٤٦٣/٢.

(٣) هي: ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وُضِع له، وهي قسمان استعارة بالكناية، واستعارة تخييلية. انظر: الإيضاح للخطيب القزويني ٢٧٤ و ٣٠٢.

(٤) رموز الكنوز ١٣٧/٤، ١٣٨، وهذا التوجيه قريب مما ذكره الزمخشري. انظر: الكشاف ٤٤٠/٢.

(٥) رموز الكنوز ٣٨٩/٤، وانظر: الكشاف للزمخشري ٥٠٢/٢.

ومن المواضع التي ذكر فيها الاستعارة بصيغة التمريض كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ (آل عمران:١١٩) ، قال تعالى ﴿ عَضُّواْ ﴾ ، أي : كدموا[1] ، ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ ﴾ أي : أطراف الأصابع ﴿ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ .

وقيل : إنَّ عضّ الأنامل ها هنا استعارة لشدة الحنق والحقد ، وإن لم يكن ثَمَّ عضّ على الحقيقة ، كقول الشاعر :

إذا رأونـــي أطـــال الله غـــيظهم عَضّوا من الغيظ أطراف الأباهيم»[2]

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٤) ، قال الرسعني : « فهو الذي حال بين قلوب الكفار والأمن ، وبين قلوبكم أيها المؤمنون وبين الخوف ، حتى دلفتم مع ضعفكم وقلة عددكم وعُددِكم إلى صناديد قريش واجترأتم[3] عليهم تقتلون وتأسرون ، قال ابن عباس وأكثر المفسرين : المعنى يحول بين المؤمن والكفر ، بين الكافر والإيمان ، وقيل : إن ذلك استعارة من قربه سبحانه وتعالى من عباده بعلمه ، كما قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) »[4] .

---

(١) كدم : يقال كدِمه ، يكدمه : عضّه بأدنى فمه ، أو أثّر فيه بحديدة . انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ١١٥٣ (كدم) .

(٢) رموز الكنوز ٢٧٦/١ ، والبيت لا يُعرف قائله وهو من البحر البسيط ، انظر : لسان العرب لابن منظور ١٧٢/٢ (بهم) ، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٤٥١/٧ .

(٣) اجترأتم بمعنى الشجاعة ، جرؤ ، ككرم فهو جريء ، وجرأته عليه تجريئاً فاجترأ ، انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ٣٦ (جرأ) .

(٤) رموز الكنوز ٤٠٠/٢ ، ٤٠١ .

النوع الثالث : علم البديع

أشار الرسعني إليه في تفسيره فذكر بعض أقسام البديع وهو المطابقة[1] ، والمشاكلة[2] ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ (هود:٩٤)، قال الرسعني : « فإن قيل : لِمَ جاء ها هنا ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وجاء في الأخرى قبلها ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ (هود:٦٧) ، قلت : قد سبق في مواضع أن الفعل إذا حصل فجائز التذكير والتأنيث ، والتذكير عندهم أحسن طلباً للخفة ، غير أنك إذا تدبرت هذا الجائز لا تراه منفكاً عن مطابقة ومشاكلة تزيده حسناً ومذهباً مقصوداً في باب البلاغة والفصاحة ، فقال سبحانه وتعالى ها هنا : ﴿ وَأَخَذَتِ ﴾ ؛ لأن بعدها ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (هود:٩٥) ، وقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ (الحج:٤٦) ، ولم يقل : فيكون ، لقوله ﴿ بِهَآ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦)، فكل ذلك مؤنث ، فلذلك كان التأنيث في قوله ﴿ فَتَكُونَ ﴾ أحسن ... فاعتبر بهذا التقدير ما يرد عليك في كتاب الله تعالى من هذا النوع ، فإنه كثير ، وتدّبره على الوجه المذكور من طلب المطابقة والمشاكلة تجده ـ إن شاء الله ـ على ما بيّنته وذكرته »[3] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الحجر:٣٥) ، قال الرسعني : « فإن قيل : ما وجه مجيء قوله ها هنا ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾

---

(١) **وهي** : الجمع بين المتضادين ، أي : معنيين متقابلين في الجملة ، وتسمى الطباق والتضاد أيضاً . انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ٣٣٣ .

(٢) **هي** : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . انظر : الإيضاح للخطيب القزويني ٣٤٤ .

(٣) رموز الكنوز ٣/٢٢٣ .

بالألف واللام ، وفي موضع آخر ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (ص:٧٨) بالإضافة؟ قلت : لما جاء هناك ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾(ص:٧٥)، مضافاً ، جاء ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ على المطابقة والمشاكلة ، وجاء ها هنا ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٣٢) ، وسياق الآية على اللام في قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (الحجر:٢٦) ، وقوله ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر:٢٧)، فجيء باللام أيضاً في قوله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾»[1].

ويتضح مما سبق أن الرسعني ـ رحمه الله ـ اهتمَّ واعتنى بعلم المعاني والبيان وبأسلوب الإيجاز في معظم الأحيان وأراد بذلك أن يبرز صورة الإعجاز القرآني وبلاغته بأبهى صورة وأجملها ، أما علم البديع فلم يهتم به وأشار إليه ببضعة مواضع .

ثانياً : إعجاز القرآن

اهتمَّ كثير من العلماء بقضية إعجاز القرآن الكريم ، وتناولوها بالبحث والبيان وقد صُنّفت في هذا العلم كتب كثيرة[2] أشارت إلى وجوه الإعجاز والتدليل عليها ، ويمكن القول : إن ما أُجمع عليه معظم مَنْ كتب في هذا الموضوع أن فصاحة القرآن وبلاغته ، وحُسن نظمه وأسلوبه ؛ لا يمكن إلا أن يُوقن بأن هذا الكلام ليس كلام بشر .

والمعجزة أمر خارق للعادة ومقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة ، وهي إما حسية وإما عقلية[3].

---

(١) رموز الكنوز ٣/٦٠٨ .

(٢) أشهر الكتب المصنّفة في هذا العلم ، بيان إعجاز القرآن للخطابي ت ٣٨٥هـ ، والنُّكت في إعجاز القرآن للرمّاني ت ٣٨٤هـ ، ودلائل إعجاز القرآن للجرجاني ت٤٧١هـ ، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني ت٦٥١هـ ، إعجاز القرآن للباقلاني ت ٤٠٣هـ ، وغيرها .

(٣) الإتقان للسيوطي ٢/٣٠٣ .

ومعلوم أن الأنبياء والرسل عليهم السلام يؤيَدون بالمعجزة لإثبات نبوتهم ، وتكون هذه المعجزة من جنس ما اشتهر به أولئك القوم[1] ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر[2] ، كما قال ﷺ : (ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[3] .

قال الرسعني : « أولَم يكفهم إنزال القرآن عليك آية ظاهرة ومعجزة باهرة ، تُتلى عليهم في كل زمان ومكان لا تضمحل ولا تزول ، كما تزول آيات الأنبياء ، وقال أيضاً : القرآن الذي هو معجز في نفسه »[4] .

غير أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن عن كيفية وقوع الإعجاز في القرآن الكريم ، هل وقع بسبب عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثل القرآن ، أو تمَّ الإعجاز بسبب الصرفة[5] كما قال بعض متقدمي المعتزلة ، وهذا قول مردود بدليل قوله تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) ، فإنه يدلّ على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سُلِبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم . . . وأيضاً فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن

---

(١) اشتهر في قوم عيسى عليه السلام الطب فكانت معجزته شفاء المرضى بإذن الله ، وفي زمن موسى عليه السلام اشتهر السحر فبعثه الله وأيده بمعجزة العصى واليد ، ولما كانت البلاغة والفصاحة في زمن الرسول ﷺ كانت معجزته القرآن ليكون التحدي والإعجاز .

(٢) الإتقان للسيوطي ٣٠٣/٤ .

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل برقم : ٤٦٩٦ ، ومسلم عنه في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس برقم : ١٥٢ .

(٤) رموز الكنوز ٦٢٥/٥ ، ٦١٠/٤ .

(٥) أي : أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات . انظر : البرهان للزركشي ٩٣/٢، ٩٤ ، والإتقان للسيوطي ٣٠٦/٤ .

التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول ﷺ العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن[1]، أما وجوه إعجازه فهي عديدة منها بلاغته ونظمه ، وإخباره عن الغيوب المستقبلية ، وما تضمّنه من قصص الأولين ، وما به من أحكام . . . إلخ وقيل : بأن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده[2].

أما ما تطرق إليه الرسعني وتناوله في تفسيره في قضية إعجاز القرآن الكريم فيمكن أن يتضحَ من خلال عرض الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس:٣٨،٣٩) ، قال الرسعني : « ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أي : شبيهة به في البلاغة وحُسن النظم ، فإنكم مثلي نسباً ولساناً ومنشأً ، إن كان الأمر على ما تزعمونه من كوني افتريته ، ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي واستعينوا بمن ﴿ ٱسْتَطَعْتُم ﴾ على الإتيان بسورة مثله ، فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ أي : سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في أول وهلة ، قبل الوقوف والنظر في معجزه وتقدير ألفاظه الرصينة ومعانيه الرزينة فراراً منه ونفوراً عنه ، لما استقر في أنفسهم من حُب الاقتداء بالآباء ، وحسداً وعناداً للمخصوص من بينهم بمنصب الرسالة »[3].

وفي قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (هود:١٣) ، قال : « فأتوا بعشر سور مثله في حُسن النظم ، ورصانة اللفظ ، وصحة المعنى ، فإن قيل : كيف تحداهم بالإتيان بسورة مثله؟ قلت : إما أن يكون التحدي وقع بالكثير

---

(١) البرهان للزركشي ٢/٩٤ ، الإتقان للسيوطي ٤/٣٠٦ .

(٢) وهذا رأي الزركشي في البرهان ٢/١٠٦، وانظر : الإتقان للسيوطي ٤/٣٠٦-٣١٥.

(٣) رموز الكنوز ٣/٥٠ .

أولاً : فلما عجزوا عدل إلى التحدي بالقليل ، وإما أن يكون التحدي وقع أولاً بالقليل ، فلما ضاق عليهم الخناق ، ولم يقدروا على إتيان المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة وسع عليهم مجال المعارضة فقال إيتوا بعشر سور»[1].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٤) ، قال : «أي مثل القرآن في رصانة مبانيه وصحة معانيه»[2]، والذي يتبيّن من خلال هذه النصوص للإمام الرسعني وضوح رأيه في قضية الإعجاز أنه يرد هذه المسألة إلى حسن ألفاظ القرآن ، ورصانة مبانيه ، وحُسن نظمه ، وصحة معانيه وبلاغته،ولعل خلفية الرسعني اللغوية ودراسته على يد أبي البقاء العكبري جعلته يعيد مثل هذه العبارات ويكررها ولم يتطرق لوجوه الإعجاز الأخرى كما في الوجه البلاغي وحسن النظم والله أعلم .

أما القضية الأخرى فيما يتعلق بإعجاز القرآن العلمي ، وما يتصل بفكرة تفسير القرآن بالعلوم التجريبية ، فهذه الفكرة لم يكن لها من الأدوات التي يمكن أن تُقبل في العصور المتقدمة ، كما هو الآن من تطور في شتى أنواع العلوم الحديثة ، وما يمكن أن يُستأنس في النظر للعلوم التجريبية قديماً قول ابن سُراقة : [3] «من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة ، والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادق في قوله ، وأن القرآن ليس من عنده ؛ إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ، ولا تلقّى الحساب

---

(١) رموز الكنوز ١٣١/٣ .

(٢) المصدر السابق ٤٥٣/٧ .

(٣) هو : محمد بن يحيى بن سراقة ، أبو الحسن العامري البصري ، فقيه محدث ، له تصانيف كثيرة منها : التفاحة في مقدمات المساحة ، والأعداد ، وأسماء الضعفاء والمتروكين وغيرها ، توفي سنة ٤١٠هـ . انظر : ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٢١١/٤ برقم : ٣٥٣ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٢٨١/١٧ .

وأهل الهندسة»[1]، بيد أن هذه الفكرة ، وتلك النظرة لا يمكن أن تقبل على إطلاقها بحيث يربط تفسير الآيات التي تتحدث عن الكون بالعلوم الحديثة المتغيرة والمتطورة ، وهي غير منضبطة بضابط ، فكم من نظرية تبدلت ، وأخرى ثبت خطؤها ، لكن هذا لا يعني عدم الوقوف عند بعض الآيات التي تدلل من خلالها أن هذا القرآن من عند الله ، خاصة لعلماء الغرب في العصر الحديث كشاهد وبرهان على إعجاز القرآن المستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن الذي يهمنا هنا هو معرفة رأي الرسعني ومنهجه في الحديث عن مثل هذه الآيات ، حيث يلاحظ أنه مُقِلٌّ في الحديث عن مثل هذه المسائل إلا في حدود ضيقة ؛ لما امتاز به تفسيره من التفسير بالأثر ، ويمكن الإشارة لمثل هذا التفسير كما في النماذج الآتية .

ففي قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥)، قال : « ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ أي : قدّر مسيره أو قدّره ذا منازل ، كقوله ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ (يس:٣٩)، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر ، وهي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنوار» ، قال ابن قتيبة : «وأسماؤها عندهم : السرطان ، والبطين ، والثريا . . . إلخ» ، ثم ذكر الرسعني نظماً لشيخه ابن قدامة ـ رحمه الله ـ ، جمع أسماء هذه النجوم[2].

وفي قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر:٤٢)، قال الرسعني : «أي ، يقبضها عند فناء أجلها ، ﴿ وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ ﴾،

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢/٣٢٧ .

(٢) رموز الكنوز ٣/١٠، ١١ بتصرف ، وانظر كذلك ٦/٣٣٨ .

أي : ويتوفى التي لم تمت ﴿ فِي مَنَامِهَا ﴾ وسماّه وفاة على وجه التشبيه للنائمين بالموتى ، قال الزجاج : المتوفى وفاة الموت هو الذي قد فارقته النفس التي تكون بها الحياة والحركة ، والنفس التي تميّز بها ، والتي تتوفى في النوم نفس التمييز وحدها لا نفس الحياة التي إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس ، وقال ابن عباس : في ابن آدم نفس وروح ، فالنفس العقل والتمييز ، وبالروح النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه . . . ، ثم ذكر أقوالاً أخرى ، ثم قال الرسعني : معنى توفي النائم : قبض نفسه عن التصرف ، وإرسالها : إطلاقها باليقظة في التصرف»[1].

* * *

(١) رموز الكنوز ٦/٥٥٥ ، ٥٥٦ .

obeikandl.com